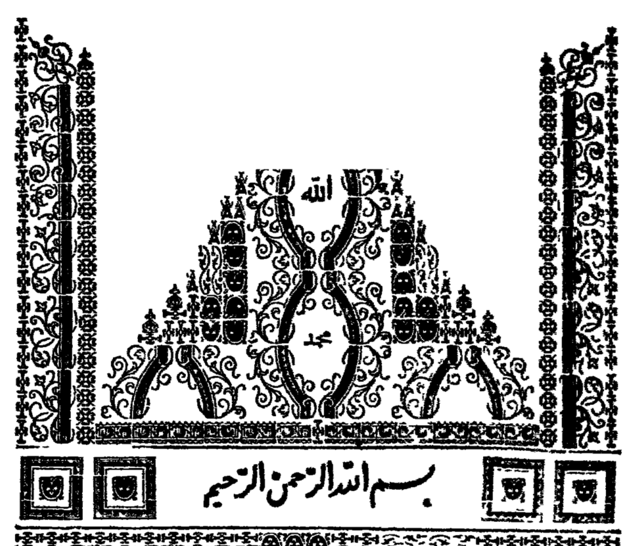


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الامام العالم الفاضل الكامل العارف أبو جعفر بن طفيل رحمة الله عليه
الحمد لله العظيم الاعظم القديم الاقدم العليم الاعلم الحكيم الاحكم الرحيم الارحم
الكريم الاكرم الحليم الاحلم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم وكان فضل الله عليك
عظيما أحمده على فواضل النعماء وأشكره على تتابع الآلاء وأشهد ان لا اله الا الله
وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صاحب الخلق الطاهر والمعجز الباهر والبرهان
القاهر والسيف الشاهر صلوات الله عليه وسلامه وعلى آله وأصحابه أولى الهمم العظائم
وذوى المناقب والمعالم وعلى جميع الصحابة والتابعين الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا
سألت أيها الاخ الكريم الصفى الحميم منحك الله البقاء الابدى واسعدك السعد السرمدى
ان أبث اليك ما امكننى بثه من اسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها الشيخ الامام الرئيس
أبو على بن سينا فاعلم ان من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد فى اقتنائها ولقد
حرك منى سؤالك خاطرا شريفا أفضى بى والحمد لله الى مشاهدة حال لم أشهدها قبل وانتهى
بى الى مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان لانه من طور غير طورها وعالم
غير عالمها غير ان تلك الحال لما لها من البهجة والسرور واللذة والحبور لا يستطيع من وصل
اليها وانتهى الى حد من حدودها ان يكتم أمرها او يخفى سرها بل يعتريه من الطرب والنشاط
والمرح والانبساط ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل وان كان ممن لم تحذقه العلوم
قال فيها بغير تحصيل حتى ان بعضهم قال فى هذه الحال سبحانى ما أعظم شانى وقال غيره أنا
الحق وقال غيره ليس فى الثوب الا الله واما الشيخ ابو حامد الغزالى رحمة الله عليه فقال متمثلا
عند وصوله الى هذه الحال بهذا البيت

فكان

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وانما أدبته المعارف وحذقته العلوم وانظر الى قول ابى بكر بن الصائغ المتصل بكلامه فى صفة الاتصال فانه يقول اذا فهم المعنى المقصود من كتابه ذلك ظهر عند ذلك انه لا يمكن ان يكون معلوم من العلوم المتعاطاة فى رتبته وحصل متصوره بفهم ذلك المعنى فى رتبة يرى نفسه فيها مباينا لجميع ما تقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية وهى اجل من ان تنسب الى الحياة الطبيعية بل هى احوال من احوال السعداء منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية بل هى احوال من احوال السعداء خليقة ان يقال لها احوال الهية يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده وهذه الرتبة التى اشار اليها ابو بكر ينتهى اليها بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى ولا شك انه بلغها ولم يتخطها واما الرتبة التى اشرنا اليها نحن اولا فهى غيرها وان كانت اياها بمعنى انه لا ينكشف فيها امر على خلاف ما انكشف فى هذه وانما تغايرها بزيادة الوضوح ومشاهدتها بأمر لا نسميه قوة الا على المجاز اذ لا نجد فى الالفاظ الجمهورية ولا فى الاصطلاحات الخاصة اسماء تدل على الشئ الذى يشاهد به ذلك النوع من المشاهدة وهذه الحال التى ذكرناها وحركنا سؤالك الى ذوق منها هى من جملة الاحوال التى نبه عليها الشيخ ابو على حيث يقول ثم اذا بلغت به الارادة والرياضة حدا ما عنت له خلسات من اطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد عنه ثم انه تكثر عليه هذه الغواشى اذا امعن فى الارتياض ثم انه ليوغل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض فكلما لمح شيأ عاج منه الى جناب القدس فيذكر من امره امرا فيغشاه غاش فيكاد يرى الحق فى كل شئ ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوف مألوفا والوميض شهابا بينا وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة الى ما وصفه من تدريج المراتب وانتهائها الى النيل بان يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق وحينئذ تدر عليه اللذات العلى ويفرح بنفسه لما يرى بها من اثر الحق ويكون له فى هذه الرتبة نظر الى الحق ونظر الى نفسه وهو بعد متردد ثم انه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط وان لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة وهنالك يحق الوصول فهذه الاحوال التى وصفها رضى الله عنه انما اراد بها ان تكون له ذوقا لا على سبيل الادراك النظرى المستخرج بالمقاييس وتقديم المقدمات وانتاج النتائج وان اردت مثالا يظهر لك به الفرق بين ادراك هذه الطائفة وادراك سواها فتخيل حال من خلق مكفوف البصر الا انه جيد الفطرة قوى الحدس ثابت الحفظ مسدد الخاطر فنشأ مذ كان فى بلدة من البلدان وما زال يتعرف اشخاص الناس بها وكثيرا من انواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها واسواقها بماله من ضروب الادراكات الاخر حتى صار بحيث يمشى فى تلك المدينة بغير دليل ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه باول وهلة وكان يعرف الالوان وحدها بشروح اسمائها وبعض حدود تدل عليها ثم انه بعد ان حصل فى هذه الرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى فى تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد امرا على خلاف ما كان يعتقده ولا انكر من امرها شيأ وصادف الالوان على نحو صدق الرسوم عنده التى كانت رسمت له بها غير انه فى ذلك كله حدث له امران عظيمان احدهما تابع للآخر

وهما زيادة الوضوح والابتهاج واللذة العظيمة فحال الناظرين الذين لم يصلوا الى طور الولاية
هي حالة الاعمى الاولى والالوان التي في هذه الحالة معلومة بشروح اسمائها هي تلك الامور التي
قال ابو بكر انها اجل من ان تنسب الى الحياة الطبيعية يهبها الله لمن يشاء من عباده وحال
النظار الذين وصلوا الى طور الولاية ومنحهم الله تعالى ذلك الشيء الذي قلنا انه لا يسمى قوة
الا على سبيل المجاز هي الحالة الثانية وقد يوجد في النادر من هو بمنزلة من كان ابدا ثاقب
البصيرة مفتوح البصر غير محتاج الى النظر ولست اعني اكرمك الله بولايته ههنا بادراك اهل
النظر ما يدركونه من عالم الطبيعة وبادراك اهل الولاية ما يدركونه مما بعد الطبيعة فان هذين
المدركين متباينان جدا بانفسهما ولا يلتبس احدهما بالآخر بل الذي نعنيه بادراك اهل النظر
ما يدركونه مما بعد الطبيعة مثل ما ادركه ابو بكر ويشترط في ادراكهم هذا ان يكون حقا
صحيحا وحينئذ يقع النظر بينه وبين ادراك اهل الولاية الذين يعتنون بتلك الاشياء بعينها
مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ وقد عاب ابو بكر ذكر هذا الالتذاذ على القوم وذكر انه
للقوة الخيالية ووعد بان يصف ما ينبغي ان يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين
وينبغي ان يقال له لا تستحل طعم شيء لم تذق ولا تتخط رقاب الصديقين ولم يفعل الرجل شيأ من
ذلك ولا وفى بهذه العدة وقد يشبه ان منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول
الى وهران او رأى انه ان وصف تلك الحال اضطره القول الى اشياء فيها قدح عليه في سيرته
وتكذيب لما اثبته من الحث على الاستكثار من المال والجمع له وتصريف وجوه الحيل
في اكتسابه * وقد خرج بنا الكلام الى غير ما حركتنا اليه بسؤالك بعض خروج بحسب
ما دعت الضرورة اليه * وظهر بهذا القول ان مطلوبك لم يتعد احد غرضين * اما ان
تسأل عما يراه اصحاب المشاهدة والاذواق والحضور في طور الولاية فهذا مما لا يمكن اثباته
على حقيقة امره في كتاب ومتى حاول احد ذلك وتكلفه بالقول او الكتب استحالت حقيقته
وصار من قبيل القسم الآخر النظري لانه اذا كسي الحروف والاصوات وقرب من عالم
الشهادة لم يبق على ما كان عليه بوجه ولا حال واختلفت العبارات فيه اختلافا كثيرا وزلت
به اقدام قوم عن الصراط المستقيم وظن بآخرين ان اقدامهم زلت وهي لم تزل وانما كان
ذلك لانه امر لا نهاية له في حضرة متسعة الاكناف محيطة غير محاط بها * والغرض الثاني من
الغرضين اللذين قلنا ان سؤالك لن يتعدى احدهما هو ان تبتغي التعريف بهذا الامر على
طريقة اهل النظر وهذا اكرمك الله بولايته شيء يحتمل ان يوضع في الكتب وتتصرف
فيه العبارات ولكنه اعدم من الكبريت الاحمر ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه لانه
من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه الا الفرد بعد الفرد ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به
الا رمزا فان الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه ولا
تظنن ان الفلسفة التي وصلت الينا في كتب ارسطوطاليس وابي نصر وفي كتاب الشفاء تفي
بهذا الغرض الذي اردته ولا ان احدا من اهل الاندلس كتب فيه شيأ فيه كفاية وذلك ان من
نشأ بالاندلس من اهل الفطرة الفائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا اعمارهم
بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغا رفيعا ولم يقدروا على اكثر من ذلك ثم خلف من بعدهم خلف
زادوا عليهم بشيء من علم المنطق فنظروا فيه ولم يفض بهم الى حقيقة الكمال فكان فيهم من قال

برح بي ان علوم الورى * اثنان ما ان فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها * وباطل تحصيله ما يفيد

ثم خلف من بعدهم خلف اخر احذق منهم نظرا واقرب الى الحقيقة ولم يكن فيهم اثقب ذهنا ولا اصح نظرا ولا اصدق روية من ابي بكر بن الصائغ غير انه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته واكثر ما يوجد له من التاليف انما هي غير كاملة ومجزومة من اواخرها ككتابه في النفس وتدبير المتوحد وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة واما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلسة وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر ان المعنى المقصود برهانه في رسالة الاتصال ليس يعطيه ذلك القول عطاء بينا الا بعد عسر واستكراه شديد وان ترتيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الاكمل ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها (فهذا حال ما وصل الينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه) واما من كان معاصرا له ممن لم يوصف بانه في مثل درجته فلم نر له تاليفا * واما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعد في حد التزايد او الوقوف على غير كمال او ممن لم تصل الينا حقيقة امره * واما ما وصل الينا من كتب ابي نصر فاكثرها في المنطق وما ورد منها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك فقد اثبت في كتاب الملة الفاضلة بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها بقاء لا نهاية له ثم صرح في السياسة المدنية بانها منحلة وصائرة الى العدم وانه لا بقاء الا للنفوس الكاملة ثم وصف في كتاب الاخلاق شيأ من امر السعادة الانسانية وانها انما تكون في هذه الحياة التي في هذه الدار ثم قال عقب ذلك كلاما هذا معناه وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز فهذا قد أيأس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة اذ جعل مصير الكل الى العدم وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر هذا مع ما صرح به من سوء معتقده في النبوة وانها بزعمه للقوة الخيالية خاصة وتفضيله الفلسفة عليها الى اشياء ليس بنا حاجة الى ايرادها * واما كتب ارسطوطاليس فقد تكفل الشيخ ابو علي بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته في كتاب الشفاء وصرح في اول الكتاب بان الحق عنده غير ذلك وانه انما الف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وان من اراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتابه في الفلسفة المشرقية ومن عني بقراءة كتاب الشفا وبقراءة كتب ارسطوطاليس ظهر له في اكثر الامور انها تتفق وان كان في كتاب الشفا اشياء لم تبلغ الينا عن ارسطو واذا اخذ جميع ما تعطيه كتب ارسطو وكتاب الشفا على ظاهره دون ان يتفطن لسره وباطنه لم يوصل به الى الكمال حسبما نبه عليه الشيخ ابو علي في كتاب الشفا * واما كتب الشيخ ابي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ويحل في آخر ويكفر باشياء ثم ينتحلها ثم انه من جملة ما كفر به الفلاسفة في كتاب التهافت انكارهم لحشر الاجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ثم قال في اول كتاب الميزان ان هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ثم قال في كتاب المنقذ من الضلال والمفصح بالاحوال ان اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وان امره انما وقف على ذلك بعد طول البحث وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وامعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل في اخر كتاب ميزان العمل حيث وصف ان الاراء

ثلاثة أقسام رأي يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه ورأي يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل
ومسترشد ورأي يكون بين الانسان وبين نفسه لا يطلع عليه الا من هو شريكه في اعتقاده ثم
قال بعد ذلك ولو لم يكن في هذه الالفاظ الا ما يشككك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك
نفعا فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة ثم تمثل
بهذا البيت

خذ ما تراه ودع شيأ سمعت به * في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه وأكثره انما هو رمز واشارة لا ينتفع به الا من وقف عليها ببصيرة نفسه اولا
ثم سمعها منه ثانيا أو من كان معدا لفهمها فائق الفطرة يكتفي بايسر اشارة وقد ذكر في كتاب
الجواهر ان له كتبا مضنونا بها على غير أهلها وانه ضمنها صريح الحق ولم يصل الى الاندلس في
علمنا منها شيء بل وصلت كتب يزعم بعض الناس انها هي تلك المضنون بها وليس الامر كذلك
وتلك الكتب هي كتاب المعارف العقلية وكتاب النفخ والتسوية ومسائل مجموعة سواها
وهذه الكتب وان كانت فيها اشارات فانها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف على ما هو
مبثوث في كتبه المشهورة وقد يوجد في كتاب المقصد الاسنى ما هو أغمض مما في تلك وقد
صرح هو بان كتاب المقصد الاسنى ليس مضنونا به فيلزم من ذلك ان هذه الكتب الواصلة
ليست هي المضنون بها وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع في اخر كتاب المشكاة
امرا عظيما اوقعه في مهواة لا مخلص له منها وهو قوله بعد ذكر اصناف المحجوبين بالانوار
ثم انتقاله الى ذكر الواصلين انهم وقفوا على ان هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافي
الوحدانية المحضة فاراد ان يلزمه من ذلك انه يعتقد ان الحق سبحانه في ذاته كثرة ما تعالى الله
عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولا شك عندنا في ان الشيخ ابا حامد ممن سعد السعادة القصوى
ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة لكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم
تصل الينا ولم يتخلص لنا نحن الحق الذي انتهينا اليه وكان مبلغنا من العلم بتتبع كلامه وكلام
الشيخ ابي علي وصرف بعضهما الى بعض واضافة ذلك الى الآراء التي نبغت في زمننا هذا ولهج
بها قوم من منتحلي الفلسفة حتى استقام لنا الحق اولا بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه
الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا اهلا لوضع كلام يؤثر عنا وتعين
علينا ان تكون ايها السائل اول من اتحفناه بما عندنا واطلعناه على ما لدينا لصحيح ولائك
وزكاء صفائك غير انا ان ألقينا اليك بغايات ما انتهينا اليه من ذلك من قبل ان نحكم مباديها
معك لم يفدك ذلك شيئا اكثر من امر تقليدي مجمل هذا ان انت حسنت ظنك بنا بحسب
المودة والموالاة لا بحسب انا نستحق ان يقبل قولنا ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك الا
ما هو اعلى منها اذ هي غير كفيلة بالنجاة فضلا عن الفوز باعلى الدرجات وانما نريد ان نحملك
على المسالك التي تقدم عليها سلوكنا ونسبح بك في البحر الذي قد عبرناه اولا حتى يفضي بك
الى ما افضى بنا اليه فتشاهد من ذلك ما شاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه
وتستغني عن ربط معرفتك بما عرفناه * وهذا يحتاج الى مقدار معلوم من الزمان غير
يسير وفراغ من الشواغل واقبال بالهمة كلها على هذا الفن فان صدق منك هذا العزم
وصحت نيتك للتشمير في هذا المطلب فستحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك
وتكون

وتكون قد ارضيت ربك وارضاك وانالك حيث تريده من املك وتطمح اليه بهمتك وكآبتك
وارجو أن اصل من السلوك بك على اقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات وان
عرضت الآن الى لمحة يسيرة على التشويق والحث على دخول الطريق فانا واصف لك قصة
حي بن يقظان وابسال وسلامان الذين سماهم الشيخ ابو علي ففي قصصهم عبرة لأولي الالباب
وذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد

ذكر سلفنا الصالح رضي الله عنهم ان جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء وهي
الجزيرة التي يتولد بها الانسان من غير أم ولا أب وبها شجر يثمر نساء وهي التي ذكر المسعودي
انها جوارى الواقواق لان تلك الجزيرة أعدل بقاع الارض هواء وأتمها لشروق النور الاعلى
عليها استعدادا وان كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الاطباء فانهم يرون ان
أعدل ما في المعمورة الاقليم الرابع فان كانوا قالوا ذلك لانه صح عندهم انه ليس على خط
الاستواء عمارة لمانع من الموانع الارضية فلقولهم ان الاقليم الرابع أعدل بقاع الارض
وجه وان كانوا انما أرادوا بذلك ان ما على خط الاستواء شديد الحرارة كالذي يصرح به
أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافه وذلك انه قد تبرهن في العلوم الطبيعية انه
لا سبب لتكون الحرارة الا الحركة أو ملاقاة الاجسام الحارة والاضاءة وتبين فيها أيضا ان
الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشيء من هذه الامور المزاجية وقد تبين فيها أيضا ان
الاجسام التي تقبل الاضاءة أتم القبول هي الاجسام الصقيلة غير الشفافة ويليها في قبول
ذلك الاجسام الكثيفة غير الصقيلة فأما الاجسام الشفافة التي لا شيء فيها من الكثافة فلا
تقبل الضوء بوجه وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو علي خاصة ولم يذكره من تقدمه فاذا تم وصحت
هذه المقدمات فاللازم عنها ان الشمس لا تسخن الارض كما تسخن الاجسام الحارة اجساما
اخر تماسها لان الشمس في ذاتها غير حارة ولا الارض أيضا تسخن بالحركة لانها ساكنة وعلى
حالة واحدة في وقت شروق الشمس عليها وفي وقت مغيبها عنها وأحوالها في التسخين والتبريد
ظاهرة الاختلاف للحس في هذين الوقتين ولا الشمس أيضا تسخن الهواء أولا ثم تسخن بعد
ذلك الارض بتوسط سخونة الهواء وكيف يكون ذلك ونحن نجد ما قرب من الهواء من الارض في
وقت الحر أسخن كثيرا من الهواء الذي يبعد منه علوا فبقي ان تسخين الشمس للارض انما هو
على سبيل الاضاءة لا غير فان الحرارة تتبع الضوء أبدا حتى ان الضوء اذا أفرط في المرآة
المقعرة أشعل ما حاذاها وقد ثبت في علوم التعاليم بالبراهين القطعية ان الشمس كرية الشكل
وان الارض كذلك وان الشمس أعظم من الارض كثيرا وان الذي يستضيء من الارض
بالشمس أبدا هو أعظم من نصفها وان هذا النصف المضيء من الارض في كل وقت أشد
ما يكون الضوء في وسطه لانه أبعد المواضع من الظلمة عند محيط الدائرة ولانه يقابل من
الشمس أجزاء كثيرة وما قرب من المحيط كان أقل ضوءا حتى ينتهي الى الظلمة عند محيط
الدائرة الذي ما أضاء موقعه من الارض قط وانما يكون الموضع وسط دائرة الضياء اذا كانت
الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه وحينئذ تكون الحرارة في ذلك الموضع أشد ما يكون
فان كان الموضع مما تبعد الشمس فيه عن مسامتة رؤوس أهله كان شديد البرودة جدا وان
كان مما تدوم فيه المسامتة كان شديد الحرارة وقد ثبت في علم الهيئة ان بقاع الارض التي

على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤس أهلها سوى مرتين في العام عند حلولها برأس الحمل
وعند حلولها برأس الميزان وهي في سائر العام ستة أشهر جنوبا منهم وستة أشهر شمالا منهم
فليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالها بسبب ذلك متشابهة وهذا القول يحتاج الى
بيان أكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله ولعلنا ننبهك عليه لانه من الامور التى تشهد بصحة
ما ذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعة من غير ام ولا اب فمنهم من بت الحكم وجزم القضية
بان حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير ام ولا اب ومنهم من انكر ذلك وروى
من امره خبرا نقصه عليك فقال انه كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الاكناف
كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الانفة والغيرة وكانت له اخت ذات
جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الازواج اذ لم يجد لها كفؤا وكان له قريب يسمى يقظان
فتزوجها سرا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم ثم انها حملت منه ووضعت طفلا فلما
خافت ان يفتضح امرها وينكشف سرها وضعته في تابوت احكمت زمه بعد ان اروته من
الرضاع وخرجت به في اول الليل في جملة من خدمها وثقاتها الى ساحل البحر وقلبها يحترق
صبابة وخوفا عليه ثم انها ودعته وقالت اللهم انك قد خلقت هذا الطفل ولم يكن شيأ مذكورا
ورزقته في ظلمات الاحشاء وتكفلت به حتى تم واستوى وانا قد سلمته الى لطفك ورجوت
له فضلك خوفا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه يا ارحم الراحمين ثم قذفت
به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد فاحتمله من ليلته الى ساحل الجزيرة الاخرى
المتقدم ذكرها وكان المد ينتهي الى اقصاه في البر لا يصل الى ذلك المكان الا بعد سنة فادخله
الماء بقوته الى اجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن
الشمس تزاور عنها اذا طلعت وتميل اذا غربت ثم اخذ الماء في النقص والجزر عن التابوت الذى
فيه الطفل وبقي التابوت في ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح وتراكمت بعد ذلك حتى
سدت باب الاجمة على التابوت وردمت مدخل الماء الى تلك الاجمة فكان المد لا ينتهي اليها
وكانت مسامير التابوت قد قلعت والواحه قد اضطربت عند رمي الماء اياه في تلك الاجمة فلما
اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته في اذن ظبية فقدت ولدها
خرج من كناسه فحمله العقاب فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت حتى وصلت الى
التابوت ففحصت عنه باظلافها وهو ينوء من داخله حتى طار عن التابوت لوح من اعلاه
فحنت الظبية ورئمت به والقمته حلمتها واروته لبنا سائغا ومازالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه
الاذى هذا ما كان من ابتداء امره عند من ينكر التولد ونحن نصف بعد هذا كيف تربى
وكيف انتقل في احواله حتى بلغ المبلغ العظيم واما الذين زعموا انه تولد من الارض فانهم قالوا
ان بطنا من ارض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والاعوام حتى امتزج فيها
الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة
كبيرة جدا وكان بعضها يفضل بعضا في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الامشاج وكان
الوسط منها اعدل ما فيها واتمه مشابهة بمزاج الانسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه
نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث في الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جدا منقسمة بقسمين
بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند

ذلك

ذلك الروح الذى هو من امر الله تعالى وتشبث به تشبثا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل اذ قد تبين ان هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وانه بمنزلة نور الشمس الذى هو دائم الفيضان على العالم فمن الاجسام ما لا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جدا ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهى الاجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف فى قبول الضياء فتختلف بحسب ذلك الوانها ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة وهى الاجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها فاذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدث فيها النار لافراط الضياء وكذلك الروح الذى هو من امر الله تعالى فياض ابدا على جميع الموجودات فمنها ما لا يظهر اثره فيه لعدم الاستعداد وهى الجمادات التى لا حياة لها وهذه بمنزلة الهواء فى المثال المتقدم ومنها ما يظهر اثره فيه وهى انواع النبات بحسب استعداداتها وهذه بمنزلة الاجسام الكثيفة فى المثال المتقدم ومنها ما يظهر اثره فيه ظهورا كثيرا وهى انواع الحيوان وهذه بمنزلة الاجسام الصقيلة فى المثال المتقدم ومن هذه الاجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس انه يحكى صورة الشمس ومثالها وكذلك ايضا من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح انه يحكى الروح ويتصور بصورته وهو الانسان خاصة واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (ان الله خلق ادم على صورته) فان قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور فى حقها وتبقى هى وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما ادركته كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها وهذا لا يكون الا للانبياء صلوات الله عليهم اجمعين وهذا كله مبين فى مواضعه اللائقة به فليرجع الى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق

قالوا فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له وسخرت بأمر الله تعالى فى كمالها فتكون بازاء تلك القرارة نفاخة اخرى منقسمة الى ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتلأت بمثل ذلك الجسم الهوائى الذى امتلأت منه القرارة الاولى الا انه الطف منه وسكن فى هذه البطون الثلاثة المنقسم منها واحد طائفة من تلك القوى التى خضعت له وتوكلت بحراسته والقيام عليه وانهاء ما يطرأ فيها من دقيق الاشياء وجلها الى الروح الاول المتعلق بالقرارة الاولى وتكون ايضا بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملوءة جسما هوائيا الا انه اغلظ من الاولين وسكن فى هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة المتوكلة بحفظه والقيام عليه فكانت هذه القرارة الاولى والثانية والثالثة اول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة الكبرى على الترتيب الذى ذكرناه واحتاج بعضها الى بعض فالاولى منها حاجتها الى الاخريين حاجة استخدام وتسخير والاخريان حاجتهما الى الاولى حاجة المرؤس الى الرئيس والمدبر الى المدبر وكلاهما لما يتخلق بعدهما من الاعضاء رئيس لا مرؤس واحدهما وهو الثانى اتم رياسة من الثالث فالاول منهما لما تعلق به من الروح واشتعلت حرارته تشكل بشكل النار الصنوبرى وتشكل ايضا الجسم الغليظ المحدق به على شكله وتكون لحما صلبا وصار عليه غلاف صفيق يحفظه وسمى العضو كله قلبا واحتاج لما يتبع الحرارة من التحليل وافناء الرطوبات الى شئ يمده ويغذوه ويخلف ما تحلل منه على الدوام والا لم يحصل بقاؤه واحتاج ايضا الى ان يحس بما يلائمه فيجتذبه وبما يخالفه فيدفعه فتكفل له العضو الواحد بما فيه من القوى التى اصلها

قوله القرارة بالفتح ما قر فيه والقاع المستدير

منه لحاجته الواحدة وتكفل له العضو الآخر بما فيه بالاخرى وكان المتكفل بالحس هو الدماغ والمتكفل بالغذاء هو الكبد واحتاج كل واحد من هذين اليه فى ان يمدهما بحرارته وبالقوى المخصوصة بهما التى اصلها منه فانتسجت بينهما لذلك كله مسالك وطرق بعضها اوسع من بعض بحسب ما تدعو اليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق ثم مازالوا يصفون الخلقة كلها والاعضاء بجملتها على حسب ما وصفه الطبيعيون فى خلقة الجنين فى الرحم لم يغادروا من ذلك شيأ الى ان كمل خلقه وتمت اعضاؤه وحصل فى حد خروج الجنين من البطن واستعانوا فى وصف كمال ذلك بتلك الطينة الكبيرة المتخمرة وانها كانت قد تهيأت لان يخلق منها كل ما يحتاج اليه فى خلق الانسان من الاغشية المجللة لجملة بدنه وغيرها فلما كمل انشقت عنه تلك الاغشية بشبه المخاض وتصدع باقى الطينة اذ كان قد لحقه الجفاف ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتد جوعه فلبته ظبية فقدت طلاها ثم استوى ما وصفه هؤلاء بعد هذا الموضع وما وصفته الطائفة الاولى فى معنى التربية فقالوا جميعا ان الظبية التى تكفلت به وافقت خصبا ومرعى أثيثا فكثر لحمها ودر لبنها حتى قام بغذاء ذلك الطفل احسن قيام وكانت معه لا تبعد عنه الا لضرورة الرعى والف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث اذا هى أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارت اليه ولم يكن بتلك الجزيرة شئ من السباع العادية فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية الى ان تم له حولان وتدرج فى المشى وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هى ترفق به وترحمه وتحمله الى مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ومتى عاد الى اللبن اروته ومتى ظمئ الى الماء أوردته ومتى ضحى ظللته ومتى خصر ادفأته فاذا جن الليل صرفته الى مكانه الاول وجللته بنفسها وبريش كان هنالك مما ملئ به التابوت اولا فى وقت وضع الطفل فيه وكان فى غدوهما ورواحهما قد الفهما ربرب يسرح معهما ويبيت حيث مبيتهما فما زال الطفل مع الظبية على تلك الحال يحكى نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من اصوات الطير وانواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده واكثر ما كانت محاكاته لاصوات الظباء فى الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع اذ للحيوانات فى هذه الاحوال المختلفة اصوات مختلفة فألفته الوحوش والفها ولم تنكره ولا انكرها فلما ثبت فى نفسه امثلة الاشياء بعد مغيبها عن مشاهدته حدث له نزوع الى بعضها وكراهية لبعض وكان فى ذلك كله ينظر الى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالاوبار والاشعار وانواع الريش وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش وما لها من الاسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والانياب والحوافر والصياصى والمخالب ثم يرجع الى نفسه فيرى ما به من العرى وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش عندما كانت تنازعه الوحوش اكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبها عليه فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ولا الفرار عن شئ منها وكان يرى اترابه من اولاد الظباء قد نبتت لها قرون بعد ان لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها فى العدو ولم ير لنفسه شيأ من ذلك كله فكان يفكر فى ذلك ولا يدرى ما سببه وكان ينظر الى ذوى العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيها فيهم وكان ايضا ينظر الى مخارج الفضول من سائر الحيوان فيراها مستورة

قوله نزوع اى اشتياق اه

اما

اما مخرج الفضلتين فبالاذناب واما ارقهما فبالاوبار وما اشبهها ولانها كانت اخفى
قضيبا منه فكان ذلك كله يكربه ويسوءه فلما طال همه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة
اعوام ويئس من ان يكمل له ما قد اضر به نقصه اتخذ من اوراق الشجر العريضة شيأ جعل
بعضه خلفه وبعضه قدامه وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه علق به تلك
الاوراق فلم يلبث الايسيرا حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره
ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة وربما كان ذلك اطول لبقائه الا انه على كل حال
قصير المدة واتخذ من اغصان الشجر عصيا سوى اطرافها وعدل متنها وكان يهش بها على
الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فنبل بذلك قدره عند
نفسه بعض نبالة وعلم ان ليده فضلا كثيرا على ايديها اذ امكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصى
التى يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما اراده من الذنب والسلاح الطبيعى وفى خلال ذلك
ترعرع واربى على السبع سنين وطال به العناء فى تجديد الاوراق التى كان يستتر بها فكانت
نفسه تنازعه الى اتخاذ ذنب من اذناب الوحوش الميتة ليعلقه على نفسه الا انه كان يرى
احياء الوحوش تتحامى ميتها وتفر عنه فلا يتأتى له الاقدام على ذلك الفعل الى ان صادف فى
بعض الايام نسرا ميتا فهدى الى نيل امله منه واغتنم الفرصة فيه اذ لم ير للوحوش عنه نفرة
فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه صحاحا كما هى وفتح ريشها وسواها وسلخ عنه سائر جلده
وفصله على قطعتين ربط احداهما على ظهره والاخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من
خلفه وعلق الجناحين على عضديه فأكسبه ذلك سترا ودفئا ومهابة فى نفوس جميع الوحوش
حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه فصار لا يدنو اليه شئ منها سوى الظبية التى كانت ارضعته
وربته فانها لم تفارقه ولا فارقها الى ان اسنت وضعفت فكان يرتاد بها المراعى الخصيبة
ويجتنى لها الثمرات الحلوة ويطعمها وما زال الهزال والضعف يستولى عليها ويتوالى الى
ان ادركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع افعالها فلما رآها الصبى على تلك الحالة
جزع جزعا شديدا وكادت نفسه تفيض اسفا عليها فكان يناديها بالصوت الذى كانت عادتها
ان تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيرا فكان
ينظر الى اذنيها والى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة وكذلك كان ينظر الى جميع اعضائها فلا يرى
بشئ منها آفة فكان يطمع ان يعثر على موضع الآفة ويزيلها عنها فترجع الى ما كانت عليه
فلم يتأت له شئ من ذلك ولا استطاعه وكان الذى ارشده لهذا الراى ما كان قد اعتبره فى نفسه
قبل ذلك لانه كان يرى انه اذا غمض عينيه او حجبهما بشئ لا يبصر شيأ حتى يزول ذلك العائق
وكذلك يرى انه اذا ادخل اصبعيه فى اذنيه وسدهما لا يسمع شيأ حتى يزيلهما واذا امسك
انفه بيده لا يشم شيأ من الروائح حتى يفتح انفه فاعتقد من اجل ذلك ان جميع ما له من
الادراكات والافعال قد تكون لها عوائق تعوقها فاذا ازيلت تلك العوائق عادت الافعال
فلما نظر الى جميع اعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها
ولم يختص بها عضو دون عضو وقع فى خاطره ان الآفة التى نزلت بها انما هى فى عضو غائب
عن العيان مستكن فى باطن الجسد وان ذلك العضو لا يغنى عنه فى فعله شئ من هذه الاعضاء
الظاهرة فلما نزلت به الآفة عمت المضرة وشملت العطلة وطمع بأنه لو عثر بذلك العضو وأزال

مما نزل به لاستقامت احواله وفاض على سائر البدن نفعه وعادت الافعال الى ما كانت
عليه وكان قد شاهد قبل ذلك فى الاشباح الميتة من الوحوش وسواها ان جميع اعضائها
مصمتة لا تجويف فيها الا القحف والصدر والبطن فوقع فى نفسه ان العضو الذى بتلك الصفة
ان يعدو احد هذه المواضع الثلاثة وكان يغلب على ظنه غلبة قوية انه انما هو فى الموضع
المتوسط من هذه المواضع الثلاثة اذ كان قد استقر فى نفسه ان جميع الاعضاء محتاجة اليه
وان الواجب بحسب ذلك ان يكون مسكنه فى الوسط وكان ايضا اذا رجع الى ذاته شعر بمثل
هذا العضو فى صدره ولانه كان يعترض سائر اعضائه كاليد والرجل والاذن والانف والعين
والراس ويقدر مفارقتها فيتأتى له انه كان يستغنى عنها وكان يقدر فى رأسه مثل ذلك ويظن انه
يستغنى عنه فاذا فكر فى الشىء الذى يجده فى صدره لم يتأت له الاستغناء عنه طرفة عين
وكذلك كان عند محاربته الوحوش اكثر ما يتقى من صياصيهم على صدره لشعوره بالشىء
الذى فيه فلما جزم الحكم بان العضو الذى نزلت به الآفة انما هو فى صدرها اجمع على البحث
عليه والتنقير عنه لعله يظفر به ويرى آفته فيزيلها ثم انه خاف ان يكون نفس فعله هذا
اعظم من الآفة التى نزلت بها اولا فيكون سعيه عليها ثم انه تفكر هل رأى من الوحوش
وسواها من صار فى مثل تلك الحال ثم عاد الى مثل حاله الاول فلم يجد شيأ فحصل له من ذلك
اليأس من رجوعها الى حالها الاول ان هو تركها وبقى له بعض رجاء فى رجوعها الى تلك الحال
ان هو وجد ذلك العضو وازال الآفة عنه فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه فاتخذ من كسور
الاحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة اشباه السكاكين وشق بها بين اضلاعها حتى قطع
اللحم الذى بين الاضلاع وافضى الى الحجاب المستبطن للاضلاع فرآه قويا فقوى ظنه بان مثل
ذلك الحجاب لا يكون الا لمثل ذلك العضو وطمع بانه اذا تجاوزه الفى مطلوبه فحاول شقه
فصعب عليه لعدم الآلات ولانها لم تكن الا من الحجارة والقصب فاستحدها ثانية
واستحدها وتلطف فى خرق الحجاب حتى انخرق له فافضى الى الرئة فظن اولا انها مطلوبه فما زال
يقلبها ويطلب موضع الآفة فيها وكان اولا انما وجد منها نصفها الذى هو فى الجانب الواحد
فلما رآها مائلة الى جهة واحدة وكان قد اعتقد ان ذلك العضو لا يكون الا فى الوسط فى عرض
البدن كما هو فى الوسط فى طوله فما زال يفتش فى وسط الصدر حتى الفى القلب وهو مجلل بغشاء
فى غاية القوة مربوط بعلائق فى غاية الوثاقة والرئة مطيفة به من الجهة التى بدأ بالشق منها فقال
فى نفسه ان كان لهذا العضو من الجهة الاخرى مثل ما له من هذه الجهة فهو فى حقيقة الوسط
ولا محالة انه مطلوبى لاسيما مع ما ارى له من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة التشتت وقوة
اللحم وانه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى لم ار مثله لشىء من الاعضاء فبحث عن الجانب الآخر
من الصدر فوجد فيه الحجاب المستبطن للاضلاع ووجد الرئة على ما وجده من هذه الجهة
فحكم بان ذلك العضو هو مطلوبه فحاول هتك حجابه وشق شغافه فبكد واستكراه ما قدر على
ذلك بعد استفراغ مجهوده وجرد القلب فرآه مصمتا من كل جهة فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة
فلم ير فيه شيأ فشد عليه يده فتبين له ان فيه تجويفا فقال لعل مطلوبى الاقصى انما هو فى
داخل هذا العضو وانا حتى الآن لم اصل اليه فشق عليه فالفى فيه تجويفين اثنين احدهما
من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى والذى من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والذى
من الجهة اليسرى خال لا شىء فيه فقال لن يعدو مطلبى ان يكون مسكنه احد هذين البيتين ثم

قال

قال اما هذا البيت الأيمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد ولا شك انه لم ينعقد حتى صار الجسد كله الى هذا الحال اذ كان قد شاهد ان الدماء كلها متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ولم يكن هذا الا دما كسائر الدماء وانا أرى هذا الدم موجودا في سائر الاعضاء لا يختص به عضو دون اخر وانا ليس مطلوبي شيأ بهذه الصفة انما مطلوبي الشئ الذي يختص به هذا الموضع الذي اجدني لا استغني عنه طرفة عين واليه كان انبعاثي من اول واما هذا الدم فكم مرة جرحتني الوحوش في المحاربة فسال مني كثير منه فما ضرني ذلك ولا أفقدني شيأ من افعالي فهذا البيت ليس فيه مطلوبي واما البيت الايسر فاراه خاليا لا شئ فيه وما ارى ان ذلك باطل فاني رايت كل عضو من الاعضاء انما هو لفعل يختص به فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه باطلا ما ارى الا ان مطلوبي كان فيه فارتحل عنه واخلاه وعند ذلك طرأ على هذا الجسد من العطلة ما طرأ ففقد الادراك وعدم الحراك فلما راى ان الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله تحقق انه احرى ان لا يعود اليه بعد ان حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث فصار عنده الجسد كله خسيسا لا قدر له بالاضافة الى ذلك الشئ الذي اعتقد في نفسه انه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك فاقتصر على الفكرة في ذلك الشئ ما هو وكيف هو وما الذي ربطه بهذا الجسد والى اين صار ومن اى الابواب خرج عند خروجه من الجسد وما السبب الذي ازعجه ان كان خرج كارها او السبب الذي كره اليه الجسد حتى فارقه ان كان خرج مختارا وتشتت فكره في ذلك كله وسلا عن ذلك الجسد وطرحه وعلم ان امه التي عطفت عليه وارضعته انما كانت ذلك الشئ المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الافعال كلها لا هذا الجسد العاطل وان هذا الجسد بجملته انما هو كالآلة لذلك وبمنزلة العصى التي اتخذها هو لقتال الوحوش فانتقلت علاقته عن الجسد الى صاحب الجسد ومحركه ولم يبق له شوق الا اليه وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وفاحت منه روائح كريهة فزادت نفرته عنه وودّ ان لا يراه ثم انه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع احدهما الآخر ميتا ثم جعل الحي يبحث في الارض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب فقال في نفسه ما احسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه وان كان قد اساء في قتله اياه وانا كنت احق بالاهتداء الى هذا الفعل بامي فحفر حفرة والقى فيها جسد امه وحثى عليها التراب وبقي يتفكر في ذلك الشئ المصرف للجسد ولا يدري ما هو غير انه كان ينظر الى اشخاص الظباء كلها فيراها على شكل امه وعلى صورتها فكان يغلب على ظنه ان كل واحد منها انما يحركه ويصرفه شئ هو مثل الشئ الذي كان يحرك امه ويصرفها فكان يالف الظباء ويحن اليها لمكان ذلك الشبه وبقي على ذلك برهة من الزمان يتصفح انواع الحيوان والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة ويتطلب هل يجد لنفسه شبيها حسبما يرى لكل واحد من اشخاص الحيوان والنبات اشباها كثيرة فلا يجد شيأ من ذلك وكان يرى البحر قد احدق بالجزيرة من كل جهة فيعتقد انه ليس في الوجود أرض سوى جزيرته تلك واتفق في بعض الاحيان ان انقدحت نار في اجمة قلخ على سبيل المحاكاة فلما بصر بها راى منظرا هاله وخلقا لم يعتده قبل فوقف يتعجب منها مليا وما زال يدنو منها شيأ فشيأ فراى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تعلق بشئ الا اتت عليه واحالته الى نفسها فحمله العجب بها وما ركب الله تعالى في طباعه من الجراءة

والقوة فلما ان مد يده اليها واراد ان يأخذ منها شيأ فلما باشرها احرقت يده ولم يستطع القبض عليها اهتدى الى ان يأخذ قبساً لم تستول النار على جميعه فاخذ بطرفه السليم والنار فى طرفه الآخر فتأتى له ذلك وحمله الى موضعه الذى كان يأوى اليه وكان قد خلا فى جحر كان استحسنه للسكنى قبل ذلك ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ويتعهدها ليلا ونهارا استحسانا لها وتعجبا منها وكان يزيد انسه بها ليلا لانها كانت تقوم له مقام الشمس فى الضياء والدفئ فعظم بها ولوعه واعتقد انها افضل الاشياء التى لديه وكان دائما يراها تتحرك الى جهة فوق وتطلب العلو فغلب على ظنه انها من جملة الجواهر السماوية التى كان يشاهدها وكان يختبر قوتها فى جميع الاشياء بان يلقيها فيها فيراها مستولية عليه اما بسرعة واما يبطء بحسب قوة استعداد الجسم الذى كان يلقيه للاحتراق او ضعفه وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيأ من اصناف الحيوانات البحرية كان قد ألقاه البحر الى ساحله فلما انضج ذلك الحيوان وسطع قتاره تحركت شهوته اليه فاكل منه شيأ فاستطابه فاعتاد بذلك اكل اللحم فصرف الحيلة فى صيد البر والبحر حتى مهر فى ذلك وزادت محبته فى النار اذ تأتى له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شئ لم يتأت له قبل ذلك فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها وقع فى نفسه ان الشئ الذى ارتحل من قلب امه الظبية التى أنشأته كان من جوهر هذا الموجود او من شئ يجانسه واكد ذلك فى ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته وبرودته من بعد موته وكل هذا دائم لا يختل وما كان يجده فى نفسه من شدة الحرارة عند صدره بازاء الموضع الذى كان قد شق عليه من الظبية فوقع فى نفسه انه لو اخذ حيوانا وشق قلبه ونظر الى ذلك التجويف الذى صادفه خاليا عندما شق عليه فى امه الظبية لرآه فى هذا الحيوان الحى وهو مملوء بذلك الشئ الساكن فيه وتحقق هل هو من جوهر النار وهل فيه شئ من الضوء والحرارة ام لا فعمد الى بعض الوحوش واستوثق منه كتافا وشقه على الصفة التى شق بها الظبية حتى وصل الى القلب فقصد اولا الى الجهة اليسرى منه وشقها فرأى ذلك الفراغ مملوأ بهواء بخارى يشبه الضباب الابيض فادخل اصبعه فيه فوجده من الحرارة فى حد كاد يحرقه ومات ذلك الحيوان على الفور فصح عنده ان ذلك البخار الحار هو الذى كان يحرك هذا الحيوان وان فى كل شخص من اشخاص الحيوانات مثل ذلك ومتى انفصل عن الحيوان مات ثم تحركت فى نفسه الشهوة للبحث عن سائر اعضاء الحيوان وترتيبها واوضاعها وكمياتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به وكيف بقاء هذا البخار المدة التى تبقى ومن اين يستمد وكيف لا تنفد حرارته فتتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الاحياء والاموات ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ فى ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له ان كل شخص من اشخاص الحيوان وان كان كثيرا باعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذى مبدؤه من قرار واحد وانقسامه فى سائر الاعضاء منبعث منه وان جميع الاعضاء انما هى خادمة له او مؤدية عنه وان منزلة ذلك الروح فى تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الاعداء بالسلاح التام او يصيد جميع صيد البحر والبر فيعد لكل جنس آلة يصيده بها والتى يحارب بها تنقسم الى ما يدفع بها نكاية غيره والى ما ينكى بها غيره وكذلك الات

الصيد

الصيد تنقسم الى ما يصلح لحيوان البحر والى ما يصلح لحيوان البر وكذلك الاشياء التى يشرح بها تنقسم الى ما يصلح للشق والى ما يصلح للكسر والى ما يصلح للثقب والبدن واحد وهو يصرف ذلك انحاء من التصريف بحسب ما تصلح له كل آلة وبحسب الغايات التى تلتمس بذلك التصريف * كذلك ذلك الروح الحيوانى واحد واذا عمل بآلة العين كان فعله ابصارا واذا عمل بآلة الاذن كان فعله سمعا واذا عمل بآلة الانف كان فعله شما واذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقا واذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمسا واذا عمل بالعضو كان فعله حركة واذا عمل بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء ولكل واحد من هذه اعضاء تخدمه ولا يتم لشئ من هذه فعل الا بما يتصل اليها من ذلك الروح على الطرق التى تسمى عصبا ومتى انقطعت تلك الطرق او انسدت تعطل فعل ذلك العضو وهذه الاعصاب انما تستمد الروح من بطون الدماغ والدماغ يستمد الروح من القلب والدماغ فيه ارواح كثيرة لانه موضع تتوزع فيه اقسام كثيرة فاى عضو عدم هذا الروح بسبب من الاسباب تعطل فعله وصار بمنزلة الآلة المطرحة التى لا يصرفها الفاعل ولا ينتفع بها فان خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فنى او تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله وصار الى حالة الموت فانتهى به النظر الى هذا الحد من النظر على رأس ثلاثة اسابيع من منشئه وذلك احد وعشرون عاما وفى خلال هذه المدة المذكورة تفنن فى وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التى كان يشرحها واحتذى بها واتخذ الخيوط من الاشعار ولحا قصب الخطمية والخبازى والقنب وكل نبات ذى خيط وكان اصل اهتدائه الى ذلك انه اخذ من الحلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوى والقصب المحدد على الحجارة واهتدى الى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف فاتخذ مخزنا وبيتا لفضلة غذائه وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه الى بعض لئلا يصل اليه شئ من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة فى بعض شؤونه واستألف جوارح الطير ليستعين بها فى الصيد واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها واتخذ من صياصى البقر الوحشية شبه الاسنة وركبها فى القصب القوى وفى عصى الزان وغيرها واستعان فى ذلك بالنار وبحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح واتخذ ترسة من جلود مضاعفة كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعى ولما رأى ان يده تفى له بكل ما فاته من ذلك وكان لا يقاومه شئ من الحيوانات على اختلاف انواعها الا انها كانت تفر عنه فتعجزه هربا فكر فى وجه الحيلة فى ذلك فلم ير شيأ انجح له من ان يتألف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن اليها بالغذاء الذى يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ومطاردة سائر الاصناف بها وكان بتلك الجزيرة خيل برية وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمل له بها غرضه وعمل عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج فتأتى له بذلك ما امله من طرد الحيوانات التى صعبت عليه الحيلة فى اخذها وانما تفنن فى هذه الامور كلها فى وقت اشتغاله بالتشريح وشهوته فى وقوفه على خصائص اعضاء الحيوان وبماذا تختلف وذلك فى المدة التى حددنا منتهاها باحد وعشرين عاما * ثم انه بعد ذلك أخذ فى مأخذ من النظر فتصفح جميع الاجسام التى فى عالم الكون والفساد من الحيوانات على اختلاف انواعها والنبات والمعادن واصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد والدخان والجليد واللهيب والجمر

قوله القنب بكسر القاف وكسكر نوع من الكتان اهـ م

فرأى لها اوصافا كثيرة وافعالا مختلفة وحركات متفقة ومتضادة وامعن النظر فى ذلك والتثبت فرأى انها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض وانها من الجهة التى تتفق بها واحدة ومن الجهة التى تختلف فيها متغايرة ومتكثرة فكان تارة ينظر خصائص الاشياء وما تنفرد به بعضها عن بعض فتكثر عنده كثرة تخرج عن الحصر وينتشر له الوجود انتشارا لا ينضبط وكانت تتكثر عنده ايضا ذاته لانه كان ينظر الى اختلاف اعضائه وان كل واحد منها منفرد بفعل وصفة تخصه وكان ينظر الى كل عضو منها فيرى انه يحتمل القسمة الى اجزاء كثيرة جدا فيحكم على ذاته بالكثرة وكذلك على ذات كل شئ ثم كان يرجع الى نظر آخر من طريق ثان فيرى ان اعضاءه وان كانت كثيرة فهى متصلة كلها بعضها ببعض لا انفصال بينها بوجه فهى فى حكم الواحد وانها لا تختلف الا بحسب اختلاف افعالها وان ذلك الاختلاف انما هو بسبب ما يصل اليها من قوة الروح الحيوانى الذى انتهى اليه نظره اولا وان ذلك الروح واحد فى ذاته وهو ايضا حقيقة الذات وسائر الاعضاء كلها كالآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق * ثم كان ينتقل الى جميع انواع الحيوان فيرى كل شخص منها واحدا بهذا النوع من النظر ثم كان ينظر الى نوع منها كالظباء والخيل والحمر واصناف الطير صنفا صنفا فكان يرى اشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا فى الاعضاء الظاهرة والباطنة والادراكات والحركات والمنازع ولا يرى بينها اختلافا الا فى أشياء يسيرة بالاضافة الى ما اتفقت فيه وكان يحكم بان الروح الذى لجميع ذلك النوع شئ واحد وانه لم يختلف الا انه انقسم على قلوب كثيرة وانه لو امكن ان يجمع جميع الذى افترق فى تلك القلوب منه ويجعل فى وعاء واحد لكان كله شيأ واحدا بمنزلة ماء واحد او شراب واحد تفرق على أوان كثيرة ثم يجمع بعد ذلك فهو فى حالتى تفريقه وجمعه شئ واحد وانما عرض له التكثر بوجه ما فكان يرى النوع كله بهذا النظر واحدا ويجعل كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة اعضاء الشخص الواحد التى لم تكن كثيرة فى الحقيقة ثم كان يحضر انواع الحيوان كلها فى نفسه ويتأملها فيراها تتفق فى انها تحس وتغتذى وتتحرك بالارادة الى اى جهة شاءت وكان قد علم ان هذه الافعال هى اخص أفعال الروح الحيوانى به وان سائر الاشياء التى تختلف بها بعد هذا الاتفاق ليست شديدة الاختصاص بالروح الحيوانى * فظهر له بهذا التأمل ان الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة وان كان فيه اختلاف يسير اختص به نوع دون نوع بمنزلة ماء واحد مقسوم على اوان كثيرة بعضه ابرد من بعض وهو فى اصله واحد وكل ما كان فى طبقة واحدة من البرودة فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح الحيوانى بنوع واحد وبعد ذلك كما ان ذلك الماء كله واحد فكذلك الروح الحيوانى واحد وان عرض له التكثر بوجه ما فكان يرى جنس الحيوان كله واحدا بهذا النوع من النظر * ثم كان يرجع الى انواع النبات على اختلافها فيرى كل نوع منها تشبه اشخاصه بعضها بعضا فى الاغصان والورق والزهر والثمر والافعال فكان يقيسها بالحيوان ويعلم ان لها شيأ واحدا اشتركت فيه هو لها بمنزلة الروح الحيوانى وانها بذلك الشئ واحد وكذلك كان ينظر الى جنس النبات كله فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من اتفاق فعله فى انه يغتذى وينمو ثم كان يجمع فى نفسه جنس الحيوان وجنس النبات فيراهما جميعا متفقين فى الاغتذاء والنمو الا ان الحيوان يزيد على

النبات بفضل الحس والادراك والتحرك وربما ظهر في النبات شيء شبيه به مثل تحول وجوه
الزهر الى جهة الشمس وتحرك عروقه الى جهة الغذاء واشباه ذلك فظهر له بهذا التأمل ان
النبات والحيوان شيء واحد بسبب شيء واحد مشترك بينهما هو في احدهما أتم واكمل وفي
الآخر قد عاقه عائق ما وان ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين احدهما جامد والآخر سيال
فيتحد عنده النبات والحيوان * ثم ينظر الى الاجسام التي لا تحس ولا تغتذي ولا تنمو من
الحجارة والتراب والماء والهواء واللهب فيرى انها اجسام مقدر لها طول وعرض وعمق وانها
لا تختلف الا ان بعضها ذو لون وبعضها لا لون له وبعضها حار وبعضها بارد ونحو ذلك من
الاختلاف وكان يرى ان الحار منها يصير باردا والبارد يصير حارا وكان يرى الماء يصير بخارا
والبخار يصير ماء والاشياء المحترقة تصير جمرا ورمادا ولهيبا ودخانا والدخان اذا وافق في
صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار بمنزلة سائر الاشياء الارضية فيظهر له بهذا التأمل ان جميعها
شيء واحد في الحقيقة وان لحقتها الكثرة بوجه ما فذلك مثل ما لحقت الكثرة الحيوان
والنبات ثم ينظر الى الشيء الذي اتحد به عنده النبات والحيوان فيرى انه جسم مثل هذه
الاجسام له طول وعرض وعمق وهو اما حار واما بارد كواحد من هذه الاجسام التي لا تحس ولا
تتغذى وانما خالفها بافعاله التي تظهر عنه بالآلات الحيوانية والنباتية لا غير ولعل تلك
الافعال ليست ذاتية وانما تسري اليه من شيء آخر ولو سرت الى هذه الاجسام الأخر
لكانت مثله فكان ينظر اليه بذاته مجردا عن هذه الافعال التي تظهر ببادئ الرأي انها
صادرة عنه فكان يرى انه ليس الا جسما من هذه الاجسام فيظهر له بهذا التأمل ان
الاجسام كلها شيء واحد حيها وجمادها متحركها وساكنها الا انه يظهر ان لبعضها افعالا
بآلات ولا يدري هل تلك الافعال ذاتية لها او سارية اليها من غيرها وكان في هذه الحال
لا يرى شيأ غير الاجسام فكان بهذا الطريق يرى الموجود كله شيأ واحدا وبالنظر الاول
يرى الموجود كثرة لا تنحصر ولا تتناهى وبقي بحكم هذه الحالة مدة ثم انه تأمل بجميع
الاجسام حيها وجمادها وهي التي هي عنده تارة شيء واحد وتارة كثيرة لا نهاية لها فرأى
ان كل واحد منها لا يخلو من أحد أمرين اما أن يتحرك الى جهة العلو مثل الدخان
واللهيب والهواء اذا حصل تحت الماء واما ان يتحرك الى الجهة المضادة لتلك الجهة وهي جهة
السفل مثل الماء وأجزاء الارض وأجزاء الحيوان والنبات وأن كل جسم من هذه الاجسام
لن يعرى عن هاتين الحركتين وانه لا يسكن الا اذا منعه مانع يعوقه عن طريقه مثل الحجر
النازل يصادف وجه الارض صلبا فلا يمكنه ان يخرقه ولو أمكنه ذلك لما انثنى عن حركته فيما
يظهر ولذلك اذا رفعته وجدته يتحامل عليك بميله الى جهة السفل طالبا للنزول وكذلك الدخان
في صعوده لا ينثني الا ان صادف قبة صلبة تحبسه فحينئذ ينعطف يمينا وشمالا ثم اذا تخلص
من تلك القبة خرق الهواء صاعدا لان الهواء لا يمكنه ان يحبسه وكان يرى ان الهواء اذا ملئ به
زق جلد وربط ثم غوص تحت الماء طلب الصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ولا يزال
يفعل ذلك حتى يوافي موضع الهواء وذلك بخروجه من تحت الماء فحينئذ يسكن ويزول عنه
ذلك التحامل والميل الى جهة العلو الذي كان يوجد منه قبل ذلك ونظر هل يجد جسما يعرى عن
احدى هاتين الحركتين أو الميل الى احداهما في وقت ما فلم يجد ذلك في الاجسام التي لديه وانما

طلب ذلك لانه طمع ان يجده فيرى طبيعة الجسم من حيث هو جسم دون ان يقترن به وصف من الاوصاف التى هى منشأ التكثر * فلما اعياه ذلك ونظر الى الاجسام التى هى أقل الاجسام حملا للاوصاف فلم يرها تعرى عن أحد هذين الوصفين بوجه وهما اللذان يعبر عنهما بالثقل والخفة فنظر الى الثقل والخفة هل هما للجسم من حيث هو جسم اوهما لمعنى زائد على الجسمية فظهر له انهما لمعنى زائد على الجسمية لانهما لو كانا للجسم من حيث هو جسم لما وجد جسم الا وهما له ونحن نجد الثقيل لا توجد فيه الخفة والخفيف لا يوجد فيه الثقيل وهما لا محالة جسمان ولكل واحد منهما معنى منفرد به عن الآخر زائد على جسميته وذلك المعنى هو الذى به غاير كل واحد منهما الآخر ولولا ذلك لكانا شيأ واحدا من جميع الوجوه * فتبين له ان حقيقة كل واحد من الثقيل والخفيف مركبة من معنيين أحدهما ما يقع فيه الاشتراك منهما جميعا وهو معنى الجسمية والآخر ما تنفرد به حقيقة كل واحد منهما عن الآخر وهو اما الثقل فى أحدهما واما الخفة فى الآخر المقترنان بمعنى الجسمية أى المعنى الذى يحرك أحدهما علوا والآخر سفلا * وكذلك نظر الى سائر الاجسام من الجمادات والاحياء فرأى ان حقيقة وجود كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية ومن شئ آخر زائد على الجسمية اما واحد واما أكثر من واحد فلاحت له صور الاجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحانى اذ هى صور لا تدرك بالحس وانما تدرك بضرب من النظر العقلى ولاح له فى جملة ما لاح من ذلك أن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب (وهو الذى تقدم شرحه أولا) لا بد له أيضا من معنى زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لان يعمل هذه الاعمال الغريبة التى تختص به من ضروب الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف الحركات وذلك المعنى هو صورته وفصله الذى انفصل به عن سائر الاجسام وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية * وكذلك للشئ الذى يقوم للنبات مقام الحار الغريزى للحيوان شئ يخصه هو فصله وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس النباتية * وكذلك لجميع أجسام الجمادات وهى ما عدا الحيوان والنبات مما فى عالم الكون والفساد شئ يخصها به يفعل كل واحد منها فعله الذى يختص به مثل صنوف الحركات وصدور الكيفيات المحسوسة عنها وذلك الشئ هو فصل كل واحد منها وهو الذى يعبر النظار عنه بالطبيعة * فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيوانى الذى كان تشوقه اليه أبدا مركبة من معنى الجسمية ومن معنى آخر زائد على الجسمية وأن معنى هذه الجسمية مشترك له ولسائر الاجسام والمعنى الآخر المقترن به ينفرد به هو وحده هان عنده معنى الجسمية فاطرحه وتعلق فكره بالمعنى الثانى وهو الذى يعبر عنه بالنفس فتشوق الى التحقق به فالتزم الفكرة فيه وجعل مبدأ النظر فى ذلك تصفح الاجسام كلها لا من جهة ما هى أجسام بل من جهة ما هى ذوات صور تلزم عنها خواص ينفصل بها بعضها عن بعض فتتبع ذلك وحصره فى نفسه فرأى أن جملة الاجسام تشترك فى صور تصدر عنها الافعال ورأى فريقا من تلك الجملة مع مشاركته لها فى تلك الصورة يزيد عليها بصورة أخرى تصدر عنها افعال خاصة به ورأى طائفة من ذلك الفريق مع مشاركتها له فى الصورة الاولى والثانية تزيد عنه بصورة ثالثة تصدر عنها افعال خاصة بها * مثال ذلك ان الاجسام الارضية كلها مثل التراب والحجارة والمعادن والنبات والحيوان وسائر الاجسام الثقيلة هى جملة واحدة تشترك فى صورة واحدة

تصدر عنها الحركة الى أسفل ما لم يعقها عائق عن النزول ومتى حركت الى جهة العلو بالقسر ثم تركت تحركت بصورتها الى أسفل * وفريق من هذه الجملة وهو النبات والحيوان مع مشاركته الجملة المتقدمة فى تلك الصورة يزيد عليها صورة أخرى يصدر عنها التغذى والنمو * والتغذى هو ان يخلف المغتذى بدل ما تحلل بالفعل منه بواسطة القوة الغاذية التى تحيل ما حصل له كمال الاستعداد بسبب القوة الهاضمة من الغذاء بالقوة الواصل بواسطة الجاذبة الى مشاكلة جوهر المغتذى حفظا لشخصه وتكميلا لمقداره والنمو هو الزيادة بواسطة القوة النامية وهى التى تزيد فى أقطار الجسم أعنى الطول والعرض والعمق على التناسب الطبيعى بما تدخل فى أجزائه من الغذاء * فهذان الفعلان عامان للنبات والحيوان وهما لا محالة صادران عن صورة مشتركة لهما وهى المعبر عنها بالنفس * وطائفة من هذا الفريق وهو الحيوان خاصة مع مشاركته الفريق المتقدم فى الصورة الاولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة يصدر عنها الحس والتنقل من حيز الى آخر * ورأى كل نوع من أنواع الحيوان له خاصية ينحاز بها عن سائر الانواع وينفصل بها متميزا عنها فعلم ان ذلك صادر له عن صورة تخصه هى زائدة عن معنى الصورة المشتركة له ولسائر الحيوان وكذلك لكل واحد من أنواع النبات مثل ذلك * فتبين له ان هذه الاجسام المحسوسات التى فى عالم الكون والفساد بعضها تلتئم حقيقته من معان كثيرة زائدة على معنى الجسمية وبعضها من معان أقل وعلم ان معرفة الاقل أسهل من معرفة الاكثر فطلب اولا الوقوف على حقيقة الشئ الذى تلتئم حقيقته من اقل الاشياء ورأى ان الحيوان والنبات لا تلتئم حقائقهما الا من معان كثيرة لتفنن افعالهما فاخر التفكر فى صورهما وكذلك رأى ان اجزاء الارض بعضها ابسط من بعض فقصد منها ابسط ما قدر عليه وكذلك رأى ان الماء شئ قليل التركيب لقلة ما يصدر عن صورته من الافعال وكذلك راى النار والهواء * وقد كان سبق الى ظنه اولا ان هذه الاربعة يستحيل بعضها الى بعض وان لها شيأ واحدا تشترك فيه وهو معنى الجسمية وان ذلك الشئ ينبغى ان يكون خلوا من المعانى التى تميز بها كل واحد من الاربعة عن الآخر فلا يمكن ان يتحرك الى فوق ولا الى اسفل ولا ان يكون حارا ولا باردا ولا ان يكون رطبا ولا يابسا لان كل واحد من هذه الاوصاف لا يعم جميع الاجسام فليست اذن للجسم بما هو جسم فاذا امكن وجود جسم لا صورة فيه زائدة على الجسمية فليس تكون فيه صفة من هذه الصفات ولا يمكن ان تكون فيه صفة الا وهى تعم سائر الاجسام المتصورة بضروب الصور فنظر هل يجد وصفا واحدا يعم جميع الاجسام حيها وجامدها فلم يجد شيأ يعم الاجسام كلها الا معنى الامتداد الموجود فى جميعها فى الاقطار الثلاثة التى يعبر عنها بالطول والعرض والعمق فعلم ان هذا المعنى هو للجسم من حيث هو جسم لكنه لم يتأت له بالحس وجود جسم بهذه الصفة وحدها حتى لا يكون فيه معنى زائد على الامتداد المذكور ويكون بالجملة خلوا من سائر الصور * ثم تفكر فى هذا الامتداد الى الاقطار الثلاثة هل هو معنى الجسم بعينه وليس ثم معنى اخر اوليس كذلك فرأى ان وراء هذا الامتداد معنى آخر هو الذى يوجد فيه هذا الامتداد وان الامتداد وحده لا يمكن ان يقوم بنفسه كما ان ذلك الشئ الممتد يمكن ان يقوم بنفسه دون امتداد واعتبر ذلك ببعض الاجسام المحسوسة ذوات الصور كالطين

مثلا فرأى انه اذا عمل منه شكل كالكرة مثلا كان له طول وعرض وعمق على قدر ما ثم ان تلك الكرة بعينها الواحدة اذا رددت الى شكل مكعب او بيضي لتبدل ذلك الطول وذلك العرض وذلك العمق وصارت على قدر آخر غير الذي كانت عليه والطين واحد بعينه لم يتبدل غير انه لابد له من طول وعرض وعمق على اى قدر كان ولا يمكن ان يعرى عنها غير انها لتعاقبها عليه تبين له انها معنى على حياله ولكونه لا يعرى بالجملة عنها تبين له انها من حقيقته * فلاح له بهذا الاعتبار ان الجسم بما هو جسم مركب على الحقيقة من معنيين (احدهما) يقوم منه مقام الطين للكرة في هذا المثال (والآخر) يقوم مقام طول الكرة وعرضها وعمقها او المكعب او اى شكل كان به وانه لا يفهم الجسم الا مركبا من هذين المعنيين وان احدهما لا يستغنى عن الآخر لكن الذي يمكن ان يتبدل و يتعاقب على اوجه كثيرة (وهو معنى الامتداد) يشبه الصورة التي لسائر الاجسام ذوات الصور والذي يثبت على حال واحدة (وهو الذي ينزل منزلة الطين المتقدم) يشبه معنى الجسمية التي لسائر الاجسام ذوات الصور * وهذا الشئ الذي هو بمنزلة الطين في هذا المثال هو الذي يسميه النظار المادة والهيولى وهي عارية عن الصور جملة * فلما انتهى نظره الى هذا الحد وفارق المحسوس بعض مفارقة وأشرف على تخوم العالم العقلي استوحش وحن الى ما ألفه من عالم الحس فتقهقر قليلا وترك الجسم على الاطلاق اذ هو امر لا يدركه الحس ولا يقدر على تناوله واخذ ابسط الاجسام المحسوسة التي شاهدها وهي تلك الاربعة التي كان قد وقف نظره عليها فاول ما نظر الى الماء فرأى انه اذا خلى وما تقتضيه صورته ظهر منه برد محسوس وطلب النزول الى اسفل فاذا اسخن اما بالنار واما بحرارة الشمس زال عنه البرد اولا وبقي فيه طلب النزول فاذا أفرط عليه بالتسخين زال عنه طلب النزول الى اسفل وصار يطلب الصعود الى فوق فزال عنه بالجملة الوصفان اللذان كانا ابدا يصدران عنه عن صورته ولم يعرف من صورته اكثر من صدور هذين الفعلين عنها فلما زال هذان الفعلان بطل حكم الصورة فزالت الصورة المائية عن ذلك الجسم عند ما ظهرت منه افعال من شأنها ان تصدر عن صورة أخرى وحدثت له صورة أخرى بعد ان لم تكن وصدر عنه بها أفعال لم تكن من شأنها ان تصدر عنه وهو بصورته الاولى * فعلم بالضرورة ان كل حادث لابد له من محدث فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساما على العموم دون تفصيل * ثم انه تتبع الصور التي كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وانها لابد لها من فاعل ثم انه نظر الى ذوات الصور فلم ير انها شئ أكثر من استعداد الجسم لان يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فانه اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته اذ ليس ههنا الا جسم وأشياء تحس عنه بعد ان لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد ان لم تكن فصلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته ولاح له مثل ذلك في جميع الصور فتبين له ان الافعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وانما هي لفاعل يفعل بها الافعال المنسوبة اليها (وهذا المعنى الذي لاح له هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به وفي محكم التنزيل فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن

فارق

فارق عالم الحس بجعل يطلب هذا الفاعل المختار من جهة المحسوسات وهو لا يعلم بعد هل هو واحد أو كثير فتصفح جميع الاجسام التي لديه وهي التي كانت فكرته أبداً فيها فرآها كلها تتكون تارة وتفسد أخرى وما لم يقف على فساد جملته وقف على فساد أجزائه مثل الماء والارض فانه رأى أجزاءهما تفسد بالنار وكذلك الهواء رآه يفسد بشدة البرد حتى يتكون منه ثلج فيسيل ماء وكذلك سائر الاجسام التي كانت لديه لم ير منها شيأ بريئاً عن الحدوث والافتقار الى الفاعل المختار فاطرحها كلها وانتقلت فكرته الى الاجسام السماوية (وانتهى الى هذا النظر على أس أربعة أسابيع من منشئه وذلك ثمانية وعشرون عاماً) فعلم ان السماوات وما فيها من الكواكب أجسام لانها ممتدة في الاقطار الثلاثة الطول والعرض والعمق لا ينفك شيء منها عن هذه الصفة وكل ما لا ينفك عن هذه الصفة فهو جسم فهي اذن كلها أجسام ثم تفكر هل هي ممتدة الى غير نهاية وذاهبة أبداً في الطول والعرض والعمق الى غير نهاية أو هي متناهية محدودة بحدود تنقطع عندها ولا يمكن ان يكون وراءها شيء من الامتداد فتحير في ذلك بعض حيرة * ثم انه بقوة نظره وذكاء خاطره رأى ان جسماً لا نهاية له باطل وشيء لا يمكن ومعنى لا يعقل وتقوى هذا الحكم عنده بحجج كثيرة سنحت له بينه وبين نفسه وذلك انه قال * أما هذا الجسم السماوي فهو متناه من الجهة التي تليني والناحية التي وقع عليها حسي فهذا لا أشك فيه لانني أدركه ببصري * واما الجهة التي تقابل هذه الجهة وهي التي يداخلني فيها الشك فاني أيضاً أعلم انه من المحال ان تمتد الى غير نهاية لاني ان تخيلت ان خطين اثنين يبتدآن من هذه الجهة المتناهية ويمران في سمك الجسم الى غير نهاية حسب امتداد الجسم ثم تخيلت ان أحد هذين الخطين قطع منه جزء كبير من ناحية طرفه المتناهي ثم أخذ ما بقي منه وأطبق طرفه الذي كان فيه موضع القطع على طرف الخط الذي لم يقطع منه شيء وأطبق الخط المقطوع منه على الخط الذي لم يقطع منه شيء وذهب الذهن كذلك معهما الى الجهة التي يقال انها غير متناهية فاما ان نجد الخطين أبداً يمتدان الى غير نهاية ولا ينقص أحدهما عن الآخر فيكون الذي قطع منه جزء مساوياً للذي لم يقطع منه شيء وهو محال واما ان لا يمتد الناقص معه أبداً بل ينقطع دون مذهبه ويقف عن الامتداد معه فيكون متناهياً فاذا رد عليه القدر الذي قطع منه أولاً وقد كان متناهياً صار كله متناهياً وحينئذ لا يقصر عن الخط الآخر الذي لم يقطع منه شيء ولا يفضل عليه فيكون اذن مثله وهو متناه فذلك أيضاً متناه (فالجسم الذي تفرض فيه هذه الخطوط متناه وكل جسم يمكن ان تفرض فيه هذه الخطوط فكل جسم متناه فاذا فرضنا أن جسماً غير متناه فقد فرضنا باطلاً ومحالاً (فلما صح عنده بفطرته الفائقة التي تنبهت لمثل هذه الحجة) أن جسم السماء متناه أراد ان يعرف على أي شكل هو وكيفية انقطاعه بالسطوح التي تحده فنظر أولاً الى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى وما مال عن سمت رأسه الى الشمال أو الى الجنوب رآه يقطع دائرة أصغر من تلك وما كان أبعد عن سمت الرأس الى أحد الجانبين كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب حتى كانت أصغر الدوائر التي تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين احداهما حول القطب الجنوبي وهي مدار سهيل والاخرى حول القطب الشمالي وهي مدار الفرقدين ولما كان مسكنه

على خط الاستواء الذى وصفناه اولا كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح افقه ومتشابهة
الاحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معا ظاهرين له وكان يترقب اذا طلع كوكب
من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب اخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معا فكان
يرى غروبهما معا واضطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الاوقات فتبين له بذلك ان الفلك
على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب
الى المشرق بعد مغيبها بالمغرب وما رآه ايضا من انها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى
حال طلوعها وتوسطها وغروبها وانها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة
فى بعض الاوقات اقرب الى بصره منها فى وقت اخر ولو كانت كذلك لكانت مقاديرها
واعظامها تختلف عند بصره فيراها فى حال القرب اعظم مما يراها فى حال البعد لاختلاف
ابعادها عن مركزه حينئذ بخلافها على الاول فلما لم يكن شئ من ذلك تحقق عنده كرية الشكل
وما زال يتصفح حركة القمر فيراها آخذة من المغرب الى المشرق وحركات الكواكب السيارة
كذلك حتى تبين له قدر كبير من علم الهيئة وظهر له ان حركاتها لا تكون الا بافلاك كثيرة كلها
مضمنة فى فلك واحد هو اعلاها وهو الذى يحرك الكل من المشرق الى المغرب فى اليوم والليلة
وشرح كيفية انتقاله ومعرفة ذلك يطول وهو مثبت فى الكتب ولا يحتاج منه فى غرضنا الا
القدر الذى اوردناه فلما انتهى الى هذه المعرفة ووقف على ان الفلك بجملته وما يحتوى عليه
كشئ واحد متصل بعضه ببعض وان جميع الاجسام التى كان ينظر فيها اولا كالارض والماء
والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هى كلها فى ضمنه وغير خارجة عنه وانه كله اشبه شئ
بشخص من اشخاص الحيوان وما فيه من الكواكب المنيرة هى بمنزلة حواس الحيوان وما فيه
من ضروب الافلاك المتصل بعضها ببعض هى بمنزلة اعضاء الحيوان وما فى داخله من عالم
الكون والفساد هى بمنزلة ما فى جوف الحيوان من اصناف الفضول والرطوبات التى كثيرا
ما يتكون فيها ايضا حيوان كما يتكون فى العالم الاكبر* فلما تبين له انه كله كشخص واحد
فى الحقيقة قائم محتاج الى فاعل مختار واتحدت عنده اجزاؤه الكثيرة بنوع من النظر الذى
الذى اتحدت به عنده الاجسام التى فى عالم الكون والفساد تفكر فى العالم بجملته هل هو شئ
حدث بعد ان لم يكن وخرج الى الوجود بعد العدم او هو امر كان موجودا فيما سلف ولم
يسبقه العدم بوجه من الوجوه فتشكك فى ذلك ولم يترجح عنده احد الحكمين على الآخر*
وذلك انه كان اذا ازمع على اعتقاد القدم اعترضته عوارض كثيرة من استحالة وجود لا نهاية له
بمثل القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لا نهاية له* وكذلك كان يرى ان هذا الوجود
لا يخلو من الحوادث فهو لا يمكن تقدمه عليها وما لا يمكن ان يتقدم على الحوادث فهو ايضا
محدث* واذا ازمع على اعتقاد الحدوث اعترضته عوارض اخر* وذلك انه كان يرى ان معنى
حدوثه بعد ان لم يكن لا يفهم الا على معنى ان الزمان تقدمه والزمان من جملة العالم وغير منفك
عنه فاذن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان* وكذلك كان يقول اذا كان حادثا فلا بد له من
محدث وهذا المحدث الذى احدثه لم احدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك ألطارئ طرأ عليه
ولا شئ هنالك غيره ام لتغير حدث فى ذاته فان كان فما الذى احدث ذلك التغير وما زال

يتفكر

يتفكر فى ذلك عدة سنين فتتعارض عنده الحجج ولا يترجح عنده احد الاعتقادين على الآخر فلما اعياه ذلك جعل يتفكر ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين فلعل اللازم عنهما يكون شيأ واحدا فرأى انه ان اعتقد حدوث العالم وخروجه الى الوجود بعد العدم فاللازم عن ذلك ضرورة انه لا يمكن ان يخرج الى الوجود بنفسه وانه لا بد له من فاعل يخرجه الى الوجود وان ذلك الفاعل لا يمكن ان يدرك بشئ من الحواس لانه لو ادرك بشئ من الحواس لكان جسما من الاجسام ولو كان جسما من الاجسام لكان من جملة العالم وكان حادثا واحتاج الى محدث ولو كان ذلك المحدث الثانى ايضا جسما لاحتاج الى محدث ثالث والثالث الى رابع ويتسلسل ذلك الى غير نهاية وهو باطل فاذن لا بد للعالم من فاعل ليس بجسم واذا لم يكن جسما فلا سبيل الى ادراكه بشئ من الحواس لان الحواس الخمس لا تدرك الا الاجسام او ما يلحق الاجسام واذن لا يمكن ان يحس فلا يمكن ان يتخيل لان التخيل ليس شيأ الا احضار صور المحسوسات بعد غيبها واذا لم يكن جسما فصفات الاجسام كلها تستحيل عليه واول صفات الاجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق وهو منزه عن ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الاجسام واذا كان فاعلا للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به * (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) * ورأى ايضا انه ان اعتقد قدم العالم وان العدم لم يسبقه وانه لم يزل كما هو فان اللازم عن ذلك ان حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء اذ هى لم يسبقها سكون يكون مبدؤها منه وكل حركة لا بد لها من محرك ضرورة والمحرك اما ان يكون قوة سارية فى جسم من الاجسام اما جسم المتحرك نفسه واما جسم آخر خارج عنه واما ان تكون قوة ليست سارية ولا شائعة فى جسم وكل قوة سارية فى جسم وشائعة فيه فانها تنقسم بانقسامه وتتضاعف بتضاعفه مثل الثقل فى الحجر مثلا المحرك له الى اسفل فانه ان قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين وان زيد عليه آخر مثله زاد فى الثقل آخر مثله فان امكن ان يتزايد الحجر ابدا الى غير نهاية كان تزايد هذا الثقل الى غير نهاية وان وصل الحجر الى حد ما من العظم ووقف وصل الثقل ايضا الى ذلك الحد ووقف لكنه قد تبرهن ان كل جسم لا محالة متناه فاذن كل قوة فى جسم لا محالة متناهية فان وجدنا قوة تفعل فعلا لا نهاية له فهى قوة ليست فى جسم وقد وجدنا الفلك يتحرك ابدا حركة لا نهاية لها ولا انقطاع اذ فرضناه قديما لا ابتداء له فالواجب على ذلك ان تكون القوة التى تحركه ليست فى جسمه ولا فى جسم خارج عنه فهى اذن لشئ برئ عن الاجسام وغير موصوف بشئ من اوصاف الجسمية وقد كان لاح له فى نظره الاول فى عالم الكون والفساد ان حقيقة وجود كل جسم انما هى من جهة صورته التى هى استعداده لضروب الحركات وان وجوده الذى له من جهة مادته وجود ضعيف لا يكاد يدرك فاذن وجود العالم كله انما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البرئ عن المادة وعن صفات الاجسام المنزه عن ان يدركه حس او يتطرق اليه خيال سبحانه واذا كان فاعلا لحركات الفلك على اختلاف انواعها فعلا لا تفاوت فيه ولا فتور فهو لا محالة قادر عليه وعالم به فانتهى نظره بهذا الطريق الى ما انتهى اليه بالطريق الاول ولم يضره فى ذلك تشككه فى قدم العالم او حدوثه وصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه اذ الاتصال

والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الاجسام وهو منزه عنها
ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة الى الصورة اذ لا تقوم الا بها ولا تثبت لها حقيقة
دونها وكانت الصورة لا يصح وجودها الا من قبل هذا الفاعل المختار تبين له افتقار
جميع الموجودات في وجودها الى هذا الفاعل وانه لا قيام لشئ منها الا به فهو اذن علة
لها وهي معلولة له سواء كانت محدثة الوجود بعد ان سبقها العدم او كانت لا ابتداء لها من
جهة الزمان ولم يسبقها العدم قط فانها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة الى الفاعل
متعلقة الوجود به ولولا دوامه لم تدم ولولا وجوده لم توجد ولولا قدمه لم تكن
قديمة وهو في ذاته غني عنها وبرئ منها وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن ان قدرته وقوته
غير متناهية وان جميع الاجسام وما يتصل بها او يتعلق بها ولو بعض تعلق هو متناه
منقطع فاذن العالم كله بما فيه من السموات والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها فعله
وخلقه ومتأخر عنه بالذات وان كانت غير متأخرة بالزمان كما انك اذا اخذت في قبضتك
جسما من الاجسام ثم حركت يدك فان ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعا لحركة يدك حركة
متأخرة عن حركة يدك تأخرا بالذات وان كانت لم تتأخر بالزمان عنها بل كان ابتداؤهما معا
فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان *(انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول
له كن فيكون)* فلما رأى ان جميع الموجودات فعله تصفحها من قبل ذا تصفحا على
طريق الاعتبار في قدرة فاعلها والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه
فتبين له في اقل الاشياء الموجودة فضلا عن اكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة
ما قضى منه كل العجب وتحقق عنده ان ذلك لا يصدر الا عن فاعل مختار في غاية الكمال
(لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا أكبر) ثم تامل في
جميع اصناف الحيوان كيف اعطى كل شئ خلقه ثم هداه لاستعماله فلولا انه هداه
لاستعمال تلك الاعضاء التي خلقت له في وجوه المنافع المقصودة بها لما انتفع بها الحيوان
وكانت كلا عليه فعلم بذلك انه اكرم الكرماء وارحم الرحماء * ثم انه مهما نظر شيئا من
الموجودات له حسن او بهاء او كمال او قوة او فضيلة من الفضائل اي فضيلة كانت تفكر وعلم
انها من فيض ذلك الفاعل المختار جل جلاله ومن جوده ومن فعله فعلم ان الذي له هو في ذاته
اعظم منها واكمل واتم واحسن وابهى وادوم وانه لا نسبة لهذه الى تلك فما زال يتتبع
صفات الكمال كلها فيراها له وصادرة عنه ويرى انه أحق بها من كل من يوصف بها دونه
وتتبع صفات النقص كلها فيراها بريئا منها ومنزها عنها وكيف لا يكون بريئا عنها وليس
معنى النقص الا العدم المحض او ما يتعلق بالعدم وكيف يكون للعدم تعلق او تلبس بمن هو
الموجود المحض الواجب الوجود بذاته المعطي لكل ذي وجود وجوده فلا وجود الا هو فهو
الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحسن وهو البهاء وهو القدرة وهو العلم وهو هو وكل شئ
هالك الا وجهه فانتهت به المعرفة الى هذا الحد على رأس خمسة اسابيع من منشئه وذلك
خمسة وثلاثون عاما وقد رسخ في قلبه من أمر هذا الفاعل ما شغله عن الفكرة في كل شئ
الا فيه وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره
على شئ من الاشياء الا ويرى فيه اثر الصنعة من حينه فينتقل بفكره على الفور الى الصانع ويترك
المصنوع

المصنوع حتى اشتد شوقه اليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الادنى المحسوس وتعلق بالعالم
الارفع المعقول فلما حصل له العلم بهذا الموجد الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده
وهو سبب لوجود جميع الاشياء اراد ان يعلم باى شئ حصل له هذا العلم وباى قوة ادرك هذا
الموجود فتصفح حواسه كلها وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى انها كلها
لا تدرك شيأ الا جسما او ما هو فى جسم وذلك ان السمع انما يدرك المسموعات وهى ما يحدث من
تموج الهواء عند تصادم الاجسام والبصر انما يدرك الالوان والشم يدرك الروائح والذوق
يدرك الطعوم واللمس يدرك الصلابة واللين والخشونة والملاسة وكذلك القوة الخيالية لا تدرك
شيأ الا ان يكون له طول وعرض وعمق وهذه المدركات كلها من صفات الاجسام وليس لهذه
الحواس ادراك شئ سواها وذلك لانها قوى شائعة فى الاجسام ومنقسمة بانقسامها فهى لذلك
لا تدرك الا جسما منقسما لان هذه القوة اذا كانت شائعة فى شئ منقسم فلا بد انها اذا
ادركت شيأ من الاشياء فانه ينقسم بانقسامها فاذن كل قوة فى جسم فانها لا تدرك الا جسما
او ما هو فى جسم وقد تبين ان هذا الموجود الواجب الوجود برئ من صفات الاجسام من
جميع الجهات فاذن لا سبيل الى ادراكه الا بشئ ليس بجسم ولا هو قوة فى جسم ولا تعلق له
بوجه من الوجوه بالاجسام ولا هو داخل فيها ولا خارج عنها ولا متصل بها ولا منفصل
عنها وقد كان تبين انه ادركه بذاته ورسخت المعرفة به عنده فتبين له بذلك ان ذاته التى ادركه
بها امر غير جسمانى ولا يجوز عليه شئ من صفات الاجسام وان كل ما يدركه من ظاهر ذاته
من الجسمانيات ليست حقيقة ذاته وانما حقيقة ذاته ذلك الشئ الذى ادرك به الموجود المطلق
الواجب الوجود فلما علم ان ذاته ليست هذه المتجسمة التى يدركها بحواسه ويحيط بها اديمه
هان عنده بالجملة جسمه وجعل يتفكر فى تلك الذات الشريفة التى ادرك بها ذلك الموجود
الشريف الواجب الوجود ونظر بذاته فى تلك الذات الشريفة هل يمكن ان تبيد او تفسد
وتضمحل او هى دائمة البقاء فرأى ان الفساد والاضمحلال انما هو من صفات الاجسام بان
تخلع صورة وتلبس اخرى مثل الماء اذا صار هواء والهواء اذا صار ماء والنبات اذا صار ترابا
او رمادا والتراب اذا صار نباتا فهذا هو معنى الفساد واما الشئ الذى ليس بجسم ولا يحتاج فى
قوامه الى الجسم وهو منزه بالجملة عن الجسمانيات فلا يتصور فساده البتة فلما ثبت له ان ذاته
الحقيقية لا يمكن فسادها اراد ان يعلم كيف يكون حالها اذا اطرحت البدن وتخلت عنه وقد
كان تبين له انها لا تطرحه الا اذا لم يبق آلة لها فتصفح جميع القوى المدركة فرأى كل
واحدة منها تارة تكون مدركة بالقوة وتارة تكون مدركة بالفعل مثل العين فى حال
تغميضها او اعراضها عن المبصر فانها تكون مدركة بالقوة (ومعنى مدركة بالقوة انها
لا تدرك الآن وتدرك فى المستقبل وفى حال فتحها واستقبالها للمبصر تكون مدركة بالفعل
ومعنى مدركة بالفعل انها الآن تدرك وكذلك كل واحدة من هذه القوى تكون بالقوة
وتكون بالفعل وكل واحدة من هذه القوى ان كانت لم تدرك قط بالفعل فهى ما دامت بالقوة
لا تتشوق الى ادراك الشئ المخصوص لانها لم تتعرف به بعد مثل من خلق مكفوف البصر
وان كانت قد ادركت بالفعل تارة ثم صارت بالقوة فانها ما دامت بالقوة تشتاق الى الادراك
بالفعل لانها قد تعرفت بذلك المدرك وتعلقت به وحنت اليه مثل من كان بصيرا ثم عمى فانه

لايزال مشتاقا الى المبصرات وبحسب مايكون الشيء المدرك اتم وابهى واحسن يكون الشوق اليه
اكثر والتألم لفقده اعظم ولذلك كان تألم من يفقد بصره بعد الرؤية اعظم من تألم من يفقد شمه
اذ الاشياء التي يدركها البصر اتم واحسن من التي يدركها الشم فان كان في الاشياء شيء
لانهاية لكماله ولاغاية لحسنه وجماله وبهائه وهو فوق البهاء والحسن وليس في الوجود
كمال ولا حسن ولا بهاء ولا جمال الا صادر من جهته وفائض من قبله فمن فقد ادراك ذلك
الشيء بعد ان تعرف به فلا محالة انه مادام فاقداله يكون في آلام لانهاية لها كما ان من كان
مدركاله على الدوام فانه يكون في لذة لا انفصام لها وغبطة لاغاية وراءها وبهجة وسرور لانهاية
لهما وقد كان تبين له ان الموجود الواجب الوجود متصف باوصاف الكمال كلها ومنزه عن
صفات النقص وبريء منها وتبين له ان الشيء الذي به يتوصل الى ادراكه امر لا يشبه
الاجسام ولا يفسد بفسادها فظهر له بذلك ان من كانت له مثل هذه الذات المعدة لمثل هذا
الادراك فانه اذا اطرح البدن بالموت فاما ان يكون قبل ذلك في مدة تصريفه للبدن
لم يتعرف قط بهذا الموجود الواجب الوجود ولا اتصل به ولا سمع عنه فهذا اذا فارق
البدن لا يتصل بذلك الموجود ولا يتألم لفقده * واما جميع القوى الجسمانية فانها تبطل
ببطلان الجسم فلا تشتاق ايضا الى مقتضيات تلك القوى ولا تحن اليها ولا تتألم بفقدها وهذه
حالة البهائم غير الناطقة كلها سواء كانت على صورة الانسان اولم تكن * واما ان يكون قبل
ذلك في مدة تصريفه للبدن قد تعرف بهذا الموجود وعلم ماهو عليه من الكمال والعظمة
والسلطان والقدرة الا انه اعرض عنه واتبع هواه حتى وافته منيته وهو على تلك الحال
فيحرم المشاهدة وعنده الشوق اليها فيبقى في عذاب طويل وآلام لانهاية لها فاما ان
يتخلص من تلك الآلام بعد جهد طويل ويشاهد ما تشوق اليه قبل ذلك واما ان يبقى في آلامه
بقاء سرمديا بحسب استعداده لكل واحد من الوجهين في حياته الجسمانية * واما من تعرف
بهذا الموجود الواجب الوجود قبل ان يفارق البدن واقبل بكليته عليه والتزم الفكرة في
جلاله وحسنه وبهائه ولم يعرض عنه حتى وافته منيته وهو على حال من الاقبال والمشاهدة
بالفعل فهو اذا فارق البدن بقي في لذة لانهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال
مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب ويزول
عنه ما تقتضيه هذه القوى الجسمانية من الامور الحسية التي هي بالاضافة الى تلك الحال
آلام وشرور وعوائق فلما تبين له ان كمال ذاته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب
الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل ابدا حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكي توافيه منيته وهو
في حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون ان يتخللها ألم (واليه اشار الجنيد شيخ الصوفية
وامامهم عند موته بقوله لاصحابه هذا وقت يؤخذ منه الله أكبر واحرم للصلاة) ثم جعل
يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه اعراض فكان يلازم الفكرة في
ذلك الموجود كل ساعة فما هو الا ان يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات او يخرق سمعه صوت
بعض الحيوان او يعترضه خيال من الخيالات او يناله الم في احد اعضائه او يصيبه الجوع
او العطش او البرد او الحر او يحتاج الى القيام لدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عما كان فيه
ويتعذر عليه الرجوع الى ما كان عليه من حال المشاهدة الا بعد جهد وكان يخاف ان تفجأه

منيته

منيته وهو في حال الاعراض فيفضي الى الشقاء الدائم والم الحجاب فتأمل ذلك واعياه الدواء فجعل يتصفح انواع الحيوانات كلها وينظر افعالها وما تسعى فيه لعله يعثر في بعضها انها شعرت بهذا الموجود وجعلت تسعى نحوه فيتعلم منها ما يكون سبب نجاته فرآها كلها انما تسعى في تحصيل غذائها ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح والاستظلال والاستدفاء وتجد في ذلك ليلها ونهارها الى حين مماتها وانقضاء مدتها ولم ير شيئا منها ينحرف عن هذا الرأي ولا يسعى لغيره في وقت من الاوقات فبان له بذلك انها لم تشعر بذلك الموجود ولا اشتاقت اليه ولا تعرفت به بوجه من الوجوه وانها كلها صائرة الى العدم او الى حال شبيه بالعدم فلما حكم ذلك على الحيوان علم ان الحكم له على النبات اولى اذ ليس للنبات من الادراكات الا بعض ما للحيوان واذا كان الاكمل ادراكا لم يصل الى هذه المعرفة فالانقص ادراكا احرى أن لا يصل مع انه رأى ايضا ان افعال النبات كلها لا تتعدى الغذاء والتوليد * ثم انه بعد ذلك نظر الى الكواكب والافلاك فرآها كلها منتظمة الحركات جارية على نسق ورآها شفافة مضيئة بعيدة عن قبول التغير والفساد فحدس حدسا قويا ان لها ذوات سوى اجسامها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وان تلك الذوات العارفة ليست باجسام ولا منطبعة في اجسام مثل ذاته هو العارفة وكيف لا يكون لها مثل تلك الذوات البريئة عن الجسمانية ويكون لمثله هو على ما هو به من الضعف وشدة الاحتياج الى الامور المحسوسة وانه من جملة الاجسام الفاسدة ومع ما به من النقص فلم يعقه ذلك عن ان تكون ذاته بريئة عن الاجسام لا تفسد فتبين له بذلك ان الاجسام السماوية اولى بذلك وعلم انها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وتشاهده على الدوام بالفعل لان العوائق التي قطعت به هو عن دوام المشاهدة من العوارض المحسوسة لا يوجد مثلها للاجسام السماوية * ثم انه تفكر لم اختص من بين سائر انواع الحيوان بهذه الذات التي اشبه بها الاجسام السماوية وقد كان تبين له اولا من أمر العناصر واستحالة بعضها الى بعض ان جميع ما على وجه الارض لا يبقى على صورته بل الكون والفساد متعاقبان عليه أبدا وان أكثر هذه الاجسام مختلطة مركبة من اشياء متضادة ولذلك تؤول الى الفساد وانه لا يوجد منها شيء صرفا وما كان منها قريبا من ان يكون صرفا خالصا لا شائبة فيه فهو بعيد عن الفساد جدا مثل جسد الذهب والياقوت وان الاجسام السماوية بسيطة صرفة ولذلك هي بعيدة عن الفساد والصور لا تتعاقب عليها وتبين له ايضا ان جميع الاجسام التي في عالم الكون والفساد منها ما تتقوم حقيقته بصورة واحدة زائدة على معنى الجسمية وهذه هي الاسطقصات الاربع ومنها ما تتقوم حقيقته باكثر من ذلك كالحيوان والنبات فما كان قوام حقيقته بصور أقل كانت افعاله اقل وبعده من الحياة أكثر فان عدم الصورة جملة لم يكن فيه الى الحياة طريق وصار في حال شبيهة بالعدم وما كان قوام حقيقته بصور أكثر كانت افعاله أكثر ودخوله في حال الحياة أبلغ وان كانت تلك الصورة بحيث لا سبيل الى مفارقتها المادة التي اختصت بها كانت الحياة حينئذ في غاية الظهور والدوام والقوة فالشيء العديم الصورة جملة هي الهيولى والمادة ولا شيء من الحياة فيها وهي شبيهة بالعدم والشيء المتقوم بصورة واحدة هي الاسطقصات الاربع وهي في اول مراتب الوجود في عالم الكون والفساد ومنها تتركب الاشياء ذوات الصور الكثيرة

وهذه الاسطقصات ضعيفة الحياة جدا اذ ليست تتحرك الا حركة واحدة وانما كانت ضعيفة الحياة لان لكل واحد منها ضدا ظاهر العناد يخالفه في مقتضى طبيعته ويطلب ان يغير صورته فوجوده لذلك غير متمكن وحياته ضعيفة والنبات أقوى حياة منه والحيوان اظهر حياة منه وذلك أن ما كان من هذه المركبات تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد فلقوته فيه يغلب طبائع الاسطقصات الباقية ويبطل قواها ويصير ذلك المركب في حكم الاسطقص الغالب فلا يستاهل لاجل ذلك من الحياة الا شيأ يسيرا كما ان ذلك الاسطقص لا يستاهل من الحياة الا يسيرا ضعيفا وما كان من هذه المركبات لا تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد منها فان الاسطقصات تكون فيه متعادلة متكافئة فاذن لا يبطل احدها قوة الآخر باكثر مما يبطل ذلك الآخر قوته بل يفعل بعضها في بعض فعلا متساويا فلا يكون فعل احد الاسطقصات اظهر ولا يستولي عليه احدها فيكون بعيد الشبه من كل واحد من الاسطقصات فكأنه لا مضادة لصورته فيستاهل الحياة بذلك ومتى زاد هذا الاعتدال وكان أتم وابعد من الانحراف كان بعده عن ان يوجد له ضد أكثر وكانت حياته أكمل

ولما كان الروح الحيواني الذي مسكنه القلب شديد الاعتدال لانه ألطف من الارض والماء واغلظ من النار والهواء صار في حكم الوسط ولم يضاد شيأ من الاسطقصات مضادة بينة فاستعد بذلك للصورة الحيوانية فرأى ان الواجب على ذلك ان يكون أعدل ما في هذه الارواح الحيوانية مستعدا لاتم ما يكون من الحياة في عالم الكون والفساد وأن يكون ذلك الروح قريبا من أن يقال انه لا ضد لصورته فيشبه لذلك هذه الاجسام السماوية التي لا ضد لصورها ويكون روح ذلك الحيوان لانه وسط بالحقيقة بين الاسطقصات التي لا تتحرك الى جهة العلو على الاطلاق ولا الى جهة السفل بل لو أمكن ان يجعل في وسط المسافة التي بين المركز وأعلى ما ينتهي اليه النار في جهة العلو ولم يطرأ عليه فساد لثبت هنالك ولم يطلب الصعود ولا النزول ولو تحرك في المكان لتحرك حول الوسط كما تتحرك الاجسام السماوية ولو تحرك في الموضع لتحرك على نفسه وكان كري الشكل اذ لا يمكن غير ذلك فاذن هو شديد الشبه بالاجسام السماوية * ولما كان قد اعتبر أحوال الحيوان ولم ير فيها ما يظن به أنه شعر بالموجود الواجب الوجود وقد كان علم من ذاته أنها قد شعرت به قطع بذلك على انه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالاجسام السماوية كلها وتبين له انه نوع مباين لسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية أخرى وأعد لامر عظيم لم يعد له شيء من أنواع الحيوان وكفى به شرفا ان يكون أخس جزأيه وهو الجسماني أشبه الاشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد المنزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغير واما أشرف جزأيه فهو الشيء الذي به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشيء العارف أمر رباني الهي لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشيء مما توصف به الاجسام ولا يدرك بشيء من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل الى معرفته بآلة سواه بل يتوصل اليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة وهو العالم والعلم والمعلوم لا تباين في شيء من ذلك اذ التباين والانفصال من صفات الاجسام ولواحقها ولا جسم هنالك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم * فلما تبين له الوجه الذي اختص به من بين سائر أصناف الحيوان بمشابهة الاجسام السماوية رأى ان الواجب عليه ان

يتقبلها

يتقبلها ويحاكى أفعالها ويتشبه بها جهده * وكذلك رأى انه بجزئه الاشرف الذى به
عرف الموجود الواجب الوجود فيه شبه مّا منه من حيث هو منزه عن صفات الاجسام كما ان
الواجب الوجود منزه عنها ورأى أيضا انه يجب عليه ان يسعى فى تحصيل صفاته لنفسه
من أى وجه أمكن وان يتخلق بأخلاقه ويقتدى بأفعاله ويجد فى تنفيذ ارادته ويسلم
الامر له ويرضى بجميع حكمه رضى من قلبه ظاهرا وباطنا بحيث يسر به وان كان مؤلما
لجسمه وضارا به ومتلفا لبدنه بالجملة * وكذلك رأى ان فيه شبها من سائر انواع الحيوان
بجزئه الخسيس الذى هو من عالم الكون والفساد وهو البدن المظلم الكثيف الذى يطالبه
بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح ورأى ان ذلك البدن لم يخلق له عبثا
ولا قرن به لأمر باطل وانه يجب عليه أن يتفقده ويصلح من شأنه وهذا التفقد لا يكون منه
الا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوان * فتجهت عنده الاعمال التى يجب عليه أن يفعلها نحو
ثلاثة اغراض * اما عمل يتشبه به بالحيوان غير الناطق * واما عمل يتشبه به بالاجسام
السماوية * واما عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود * فالتشبه الاول يجب عليه من
حيث له البدن المظلم ذو الاعضاء المنقسمة والقوى المختلفة والمنازع المتفننة * والتشبه
الثانى يجب عليه من حيث له الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب وهو مبدأ لسائر البدن
ولما فيه من القوى * والتشبه الثالث يجب عليه من حيث هو هو اى من حيث هو الذات
الذى عرف به ذلك الموجود الواجب الوجود وكان أولا قد وقف على ان سعادته وفوزه
من الشقاء انما هى فى دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض
عنه طرفة عين ثم انه نظر فى الوجه الذى يتأتى له به هذا الدوام فخرج له النظر أنه يجب عليه
الاعتمال فى هذه الاقسام الثلاثة من التشبهات اما التشبه الاول فلا يحصل له به شئ من هذه
المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق دونها اذ هو تصرف فى الامور المحسوسة والامور المحسوسة
كلها حجب معترضة دون تلك المشاهدة وانما احتيج الى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح
الحيوانى الذى يحصل به التشبه الثانى بالاجسام السماوية فالضرورة تدعو اليه من هذا
الطريق ولو كان لا يخلو من تلك المضرة (وأما التشبه الثانى) فيحصل له به حظ عظيم من
المشاهدة على الدوام لكنها مشاهدة يخالطها شوب اذ من يشاهد ذلك النحو من المشاهدة
على الدوام فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت اليها حسبما يتبين بعد هذا (واما التشبه
الثالث) فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذى لا التفات فيه بوجه من
الوجوه الا الى الموجود الواجب الوجود والذى يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه
ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت او قليلة الا الذات الواحد الحق
الواجب الوجود جل وتعالى وعز فلما تبين له ان مطلوبه الاقصى هو هذا التشبه الثالث وانه
لا يحصل له الا بعد التمرن والاعتمال مدة طويلة فى التشبه الثانى وان هذه المدة لا تدوم له
الا بالتشبه الاول وعلم ان التشبه الاول وان كان عائقا بذاته معينا بالعرض لا بالذات لكنه
ضرورى ألزم نفسه ان لا يجعل لها حظا من هذا التشبه الاول الا بقدر الضرورة وهى الكفاية
التى لا بقاء للروح الحيوانى بأقل منها ووجد ما تدعو اليه الضرورة فى بقاء هذا الروح أمرين
احدهما ما يمده به من داخل ويخلف عليه بدل ما يتحلل من الغذاء والآخر ما يقيه من خارج

ويدفع عنه وجوه الأذى من البرد والحر والمطر ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك ورأى انه ان تناول ضروريه من هذه جزافا كيفما اتفق ربما وقع في السرف واخذ فوق الكفاية فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر فرأى ان الحزم له ان يفرض لنفسه فيها حدودا لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها وبان له ان هذا الفرض يجب ان يكون في جنس ما يتغذى به واي شيء يكون وفي مقداره وفي المدة التي تكون بين العودتين اليه فنظر أولا في اجناس ما به يتغذى فرآها ثلاثة اضرب اما نبات لم يكمل نضجه ولم ينته الى غاية تمامه وهي اصناف البقول الرطبة التي يمكن الاغتذاء بها واما ثمرات النبات الذي قد تم وتناهى واخرج بزره ليتكون منه آخر من نوعه حفظا له وهي اصناف الفواكه رطبها ويابسها واما حيوان من الحيوانات التي يتغذى بها اما البرية واما البحرية وكان قد صح عنده ان هذه الاجناس كلها من فعل ذلك الموجود الواجب الوجود الذي تبين له ان سعادته في القرب منه وطلب التشبه به ولا محالة ان الاغتذاء بها مما يقطعها عن كمالها ويحول بينها وبين الغاية المقصودة بها فكان ذلك اعتراضا على فعل الفاعل وهذا الاعتراض مضاد لما يطلبه من القرب منه والتشبه به فرأى ان الصواب له لو امكن ان يمتنع عن الغذاء جملة واحدة لكنه لم يمكنه ذلك لانه ان امتنع عنه يؤول ذلك الى فساد جسمه فيكون ذلك اعتراضا على فاعله أشد من الاعتراض الاول اذ هو اشرف من تلك الاشياء الاخر التي يكون فسادها سببا لبقائه فاستسهل ايسر الضررين وتسامح في اخف الاعتراضين ورأى ان يأخذ من هذه الاجناس اذا عدمت ايها تيسر له بالقدر الذي يتبين له بعد هذا اما ان كانت كلها موجودة فينبغي له حينئذ ان يتثبت ويتخير منها ما لم يكن في أخذه كبير اعتراض على فعل الفاعل وذلك مثل لحوم الفواكه التي قد تناهت في الطيب وصلح ما فيها من البذر لتوليد المثل على شرط التحفظ بذلك البزر بأن لا يأكله ولا يفسده ولا يلقيه في موضع لا يصلح للنبات مثل الصفاة والسبخة ونحوهما فان تعذر عليه وجود مثل هذه الثمرات ذات اللحم الغاذي كالتفاح والكمثرى والاجاص ونحوها كان له عند ذلك أن يأخذ اما من الثمرات التي لا يغذو منها الا نفس البزر كالجوز والقسطل واما من البقول التي لم تصل حد كمالها والشرط عليه في هذين أن يقصد أكثرها وجودا وأقواها توليدا وأن لا يستأصل أصولها ولا يفني بزرها فان عدم هذه فله ان يأخذ من الحيوان أو من بيضه والشرط عليه في الحيوان أن يأخذ من أكثره وجودا ولا يستأصل منه نوعا بأسره * هذا ما رآه في جنس ما يتغذى به وأما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسد خلة الجوع ولا يزيد عليها * وأما الزمان الذي بين كل عودتين فرأى انه اذا أخذ حاجته من الغذاء أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يقطع به عن بعض الاعمال التي تجب عليه في التشبه الثاني وهو الذي يأتي ذكره بعد هذا * وأما ما تدعو اليه الضرورة في بقاء الروح الحيواني مما يقيه من خارج فكان الخطب فيه عليه يسيرا اذ كان مكتسيا بالجلود وقد كان له مسكن يقيه مما يرد عليه من خارج فاكتفى بذلك ولم ير الاشتغال به والتزم في غذائه القوانين التي رسمها لنفسه (وهي التي تقدم شرحها) * ثم اخذ في العمل الثاني وهو التشبه بالاجسام السماوية والاقتداء بها والتقبل لصفاتها وتتبع اوصافها فانحصرت عنده في ثلاثة اضرب (الضرب الاول) أوصاف لها بالاضافة الى ما تحتها

من عالم الكون والفساد وهي ما تعطيها اياه من التسخين بالذات والتبريد بالعرض والاضاءة والتلطيف والتكثيف الى سائر ما تفعل فيه من الامور التي بها يستعد لفيضان الصور الروحانية عليه من الفاعل الواجب الوجود (والضرب الثاني) أوصاف لها في ذاتها مثل كونها شفافة ونيرة وطاهرة منزهة عن الكدر وضروب الرجس ومتحركة بالاستدارة بعضها على مركز نفسها وبعضها على مركز غيرها (والضرب الثالث) أوصاف لها بالاضافة الى الموجود الواجب الوجود مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه وتتشوق اليه وتتصرف بحكمه وتتسخر في تتميم ارادته ولا تتحرك الا بمشيئته وفي قبضته * فجعل يتشبه بها جهده في كل واحد من هذه الاضرب الثلاثة (أما الضرب الاول) فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان أو النبات وهو يقدر على ازالتها عنه الا ويزيلها فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشا يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب ان كان مما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذي بفاصل لا يضر المؤذي وتعهده بالسقي ما أمكنه * ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك او سقط في عينيه او اذنيه شيء يؤذيه او مسه ظمأ أو جوع تكفل بازالة ذلك كله عنه جهده واطعمه وسقاه * ومتى وقع بصره على ماء يسيل الى سقي نبات او حيوان وقد عاقه عن ممره عائق من حجر سقط فيه او جرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه ومازال يمعن في هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية (واما الضرب الثاني) فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه دوام الطهارة وازالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الاوقات وتنظيف ما كان من أظفاره واسنانه ومغابن بدنه وتطييبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدواخن العطرة وتعهد لباسه بالتنظيف والتطييب حتى كان كله يتلألأ حسنا وجمالا ونظافة وطيبا * والتزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة فتارة كان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها ويسيح باكنافها وتارة كان يطوف ببيته او ببعض الكدى أدوارا معدودة اما مشيا واما هرولة وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه (وأما الضرب الثالث) فكان تشبهه بها فيه أن كان يلازم الفكرة في ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه ويسد اذنيه ويضرب جهده عن تتبع الخيال ويروم بمبلغ طاقته ان لا يفكر في شيء سواه ولا يشرك به أحدا ويستعين على ذلك الاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها فكان اذا اشتد في الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التي تحتاج الى الآلات الجسمانية وقوي فعل ذاته التي هي بريئة من الجسم فكانت في بعض الاوقات فكرته قد تخلص عن الشوب ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود ثم تكر عليه القوى الجسمانية فتفسد عليه حاله وترده الى أسفل السافلين فيعود من ذي قبل فان لحقه ضعف يقطع به عن غرضه تناول بعض الاغذية على الشرائط المذكورة ثم انتقل الى شأنه من التشبه بالاجسام السماوية بالاضرب الثلاثة المذكورة ودأب على ذلك مدة وهو يجاهد قواه الجسمانية وتجاهده وينازعها وتنازعه وفي الاوقات التي يكون له عليها الظهور وتتخلص فكرته عن الشوب يلوح له شيء من أحوال اهل التشبه الثالث يدعوه لان يطلب التشبه الثالث ويسعى في تحصيله

فينظر في صفات الموجود الواجب الوجود وقد كان تبين له اثناء نظره العلمي قبل الشروع في العمل انها على ضربين (اما صفة ثبوت) كالعلم والقدرة والحكمة (واما صفة سلب) كتنزهه عن الجسميات ولواحقها وما يتعلق بها ولو على بعد وان صفات الثبوت يشترط فيها هذا التنزيه حتى لا يكون فيها شيء من صفات الاجسام التي من جملتها الكثرة فلا تتكثر ذاته بهذه الصفات الثبوتية بل ترجع كلها الى معنى واحد هو حقيقة ذاته * فجعل يطلب كيف يتشبه به في كل واحد من هذين الضربين (اما صفات الايجاب) فلما علم انها كلها راجعة الى حقيقة ذاته وانه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه اذ الكثرة من صفات الاجسام وعلم ان علمه بذاته ليس معنى زائدا على ذاته بل ذاته هي علمه بذاته وعلمه بذاته هو ذاته تبين له انه ان امكنه هو ان يعلم ذاته فليس ذلك العلم الذي علم به ذاته معنى زائدا على ذاته بل هو هو فرأى ان التشبه به في صفة الايجاب هو ان يعلمه فقط دون ان يشرك به شيئا من صفات الاجسام فاخذ نفسه بذلك (واما صفات السلب) فانها كلها راجعة الى التنزه عن الجسمية فجعل يطرح اوصاف الجسمية عن ذاته وكان قد اطرح منها كثيرا في رياضته المتقدمة التي كان ينحو بها التشبه بالاجسام السماوية الا انه بقي منها بقايا كحركة الاستدارة والحركة من اخص صفات الاجسام وكالاعتناء بامر الحيوان والنبات والرحمة لهما والاهتمام بازالة عوائقهما فان هذه ايضا من صفات الاجسام اذ لا يراها اولا الا بقوة هي جسمانية ثم يكدح في امرها بقوة جسمانية أيضا فاخذ في طرح ذلك كله عن نفسه اذ هي بجملتها مما لا يليق بهذه الحالة التي يطلبها الآن ومازال يقتصر على السكون في قعر مغارته مطرقا غاضا بصره معرضا عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية مجتمع الهم والفكر في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة فمتى سنح لخياله سانح سواه طرده عن خياله جهده ودافعه وراض نفسه على ذلك ودأب فيه مدة طويلة بحيث تمر عليه عدة ايام لا يتغذى فيها ولا يتحرك * وفي خلال شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات الا ذاته فانها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الاول الحق الواجب الوجود فكان يسوءه ذلك ويعلم انه شوب في المشاهدة المحضة وشركة في الملاحظة ومازال يطلب الفناء عن نفسه والاخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك وغابت عن ذكره وفكره السموات والارض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد (وهي الذوات العارفة بالموجود) وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منثورا ولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود وهو يقول بقوله الذي ليس معنى زائدا على ذاته لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ففهم كلامه وسمع نداءه ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا تعلق قلبك بوصف امر لم يخطر على قلب بشر فان كثيرا من الامور التي قد تخطر على قلوب البشر يتعذر وصفها فكيف بامر لا سبيل الى خطوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره

ولست اعني بالقلب جسم القلب ولا الروح التي في تجويفه بل اعني به صورة تلك الروح الفائضة بقواها على بدن الانسان فان كل واحد من هذه الثلاثة يقال له قلب ولكن لا سبيل

لخطور

خطر ذلك الامر على واحد من هذه الثلاثة ولا يتأتى التعبير الا عما خطر عليها ومن رام
التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلا وهو بمنزلة من يريد ان يذوق الالوان المصبوغة من
حيث هي ألوان ويطلب ان يكون السواد مثلا حلوا او حامضا * لكنا مع ذلك لا نخليك
عن اشارات نومي بها الى ما شاهده من عجائب ذلك المقام على سبيل ضرب المثال لا على سبيل
قرع باب الحقيقة اذ لا سبيل الى التحقق بما في ذلك المقام الا بالوصول اليه * فاصغ الآن
بسمع قلبك وأحدق ببصر عقلك الى ما اشير اليه لعلك تجد منه هديا يلقيك على جادة الطريق
وشرطي عليك ان لا تطلب مني في هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما اودعه هذه
الاوراق فان المجال ضيق والتحكم بالالفاظ على امر ليس من شانه ان يلفظ به خطر

(فاقول)

انه لما فني عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود الا الواحد الحي القيوم وشاهد
ما شاهد ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عندما افاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر
بباله انه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى وان حقيقة ذاته هي ذات الحق وان الشيء الذي
كان يظن اولا انه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيأ في الحقيقة بل ليس ثم شيء الا ذات
الحق وان ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الاجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها فانه وان
نسب الى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيأ سوى نور الشمس وان زال ذلك
الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه ومتى
حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فاذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ولم يكن له معنى
* وتقوى عنده هذا الظن بما كان بان له من ان ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من
الوجوه وان علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا ان من حصل عنده العلم بذاته فقد
حصل عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم فحصل عنده الذات وهذه الذات لا تحصل الا عند
ذاتها ونفس حصولها هو الذات فاذن هو الذات بعينها وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة
العارفة بتلك الذات الحقة التي كان يراها اولا كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيئا واحد
وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا ان تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته فعلم ان هذه الشبهة
انما ثارت عنده من بقايا ظلمة الاجسام وكدورة المحسوسات فان الكثير والقليل والواحد
والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هي كلها من صفات الاجسام وتلك الذوات المفارقة
العارفة بذات الحق عز وجل لبراءتها عن المادة لا يجب ان يقال انها كثيرة ولا واحدة لان
الكثرة انما هي مغايرة الذوات بعضها لبعض والوحدة ايضا لا تكون الا بالاتصال ولا يفهم شيء
من ذلك الا في المعاني المركبة المتلبسة بالمادة غير ان العبارة في هذا الموضع قد تضيق جدا
لانك ان عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا اوهم ذلك معنى
الكثرة فيها وهي بريئة عن الكثرة وان انت عبرت بصيغة الافراد اوهم ذلك معنى الاتحاد
وهو مستحيل عليها وكأني بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظلم الشمس في
أعينهم يتحرك في سلسلة جنونه ويقول لقد افرطت في تدقيقك حتى انك قد انخلعت عن
غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول فان من احكام العقل ان الشيء اما واحد واما كثير
فليتئد في غلوائه وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه وليعتبر بالعالم المحسوس الخسيس الذي

هو بين طباقه بضوء اغتشيه حي بن يقظان حيث كان ينظر فيه بنظر فيراه كثيرا كثرة
لا تنحصر ولا تدخل تحت حد ثم ينظر بنظر آخر فيراه واحدا وبقي في ذلك مترددا ولم يمكنه
ان يقطع عليه بأحد الوصفين دون الآخر وهذا العالم المحسوس منشأ الجمع والافراد
وفيه تفهم حقيقته وفيه الانفصال والاتصال والتحيز والمغايرة والاتفاق والاختلاف فما
ظنه بالعالم الالهي الذي لا يقال فيه كل ولا بعض ولا ينطق في امره بلفظ من الالفاظ المسموعة
الا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة فلا يعرفه الا من شاهده ولا تثبت حقيقته الا عند
من حصل فيه واما قوله حتى تخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول فنحن
نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه فان العقل الذي يعنيه هو وامثاله انما هو القوة الناطقة
التي تتصفح اشخاص الموجودات المحسوسة وتقتنص منها المعنى الكلي والعقلاء الذين
يعنيهم هم الذين ينظرون بهذا النظر والنمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله فليسد عنه سمعه
من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع الى فريقه الذين يعلمون ظاهرا من الحياة
الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) * فان كنت ممن يقنع بهذا النوع من التلويح والاشارة
الى ما في العالم الالهي ولا تحمل الفاظنا من المعاني على ما جرت العادة به في تحميلها اياه فنحن
نزيدك شيأ مما شاهده حي بن يقظان في مقام اولي الصدق الذي تقدم ذكره (فنقول) انه بعد
الاستغراق المحض والفناء التام وحقيقة الوصول شاهد الفلك الاعلى الذي لا جسم له
ورأى ذاتا بريئة عن المادة ليست هي ذات الواحد الحق ولا هي نفس الفلك ولا هي غيرهما
وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة من المرائي الصقيلة فانها ليست هي الشمس ولا المرآة
ولا هي غيرهما ورأى لذات ذلك الفلك من الكمال والبهاء والحسن ما يعظم عن ان
يوصف بلسان ويدق عن ان يكسى بحرف او صوت ورآه في غاية من اللذة والسرور والغبطة
والفرح بمشاهدة ذات الحق جل جلاله * وشاهد ايضا للفلك الذي يليه وهو فلك الكواكب
الثابتة ذاتا بريئة عن المادة ايضا ليست هي ذات الواحد الحق ولا ذات الفلك الاعلى المفارقة
ولا نفسه ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة قد انعكست اليها الصورة من
مرآة اخرى مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات ايضا من البهاء والحسن واللذة مثل ما رأى لتلك
التي للفلك الاعلى * وشاهد ايضا للفلك الذي يلي هذا وهو فلك زحل ذاتا مفارقة للمادة ليست
هي شيأ من الذوات التي شاهدها قبله ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في
مرآة قد انعكست اليها الصورة من مرآة مقابلة للشمس المرآة ورأى لهذه الذات ايضا مثل
ما رأى لما قبلها من البهاء واللذة وما زال يشاهد لكل فلك ذاتا مفارقة بريئة عن المادة ليست
هي شيأ من الذوات التي قبلها ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تنعكس من مرآة
على مرآة على رتب مرتبة بحسب ترتيب الافلاك وشاهد لكل ذات من هذه الذوات من
الحسن والبهاء واللذة والفرح ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر الى أن انتهى
الى عالم الكون والفساد وهو جميعه حشو فلك القمر فرأى له ذاتا بريئة عن المادة ليست شيأ
من الذوات التي شاهدها قبلها ولا هي سواها ولهذه الذات سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون
الف فم في كل فم سبعون ألف لسان يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدسها ويمجدها لا يفتر
ورأى لهذه الذات التي توهم فيها الكثرة وليست كثيرة من الكمال واللذة مثل الذي رآه لما

قبلها

فيها وكأن هذه الذات صورة الشمس التي تظهر في ماء مترجرج قد انعكست اليها الصورة من آخر المرايا التي انتهى اليها الانعكاس على الترتيب المتقدم من المرآة الاولى التي قابلت الشمس عينها ثم شاهد لنفسه ذاتا مفارقة لو جاز ان تتبعض ذات السبعين ألف وجه لقلنا انها بعضها ولولا ان هذه الذات حدثت بعد ان لم تكن لقلنا انها هي ولولا اختصاصها ببدنه عند حدوثه لقلنا انها لم تحدث * وشاهد في هذه الرتبة ذوات مثل ذاته لاجسام كانت ثم اضمحلت ولاجسام لم تزل معه في الوجود وهي من الكثرة في حد بحيث لا تتناهى ان جاز أن يقال لها كثيرة أوهي كلها متحدة ان جاز ان يقال لها واحدة ورأى لذاته ولتلك الذوات التي في رتبته من الحسن والبهاء واللذة غير المتناهية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يصفه الواصفون ولا يعقله الا الواصلون العارفون * وشاهد ذوات كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة قد ران عليها الخبث وهي مع ذلك مستدبرة للمرايا الصقيلة التي ارتسمت فيها صورة الشمس ومولية عنها بوجوهها ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص ما لم يقم قط بباله ورآها في آلام لا تنقضي وحسرات لا تمحى قد أحاط بها سرادق العذاب وأحرقتها نار الحجاب ونشرت بمناشير بين الانزعاج والانجذاب * وشاهد ههنا ذوات سوى هذه المعذبة تلوح ثم تضمحل وتنعقد ثم تنحل فتثبت فيها وانعم النظر اليها فرأى هولا عظيما وخطبا جسيما وخلقا حثيثا واحكاما بليغا وتسوية ونفخا وانشاء ونسخا فما هو الا ان تثبت قليلا فعادت اليه حواسه وتنبه من حاله تلك التي كانت شبيهة بالغشي وزلت قدمه عن ذلك المقام ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الالهي اذ لم يمكن اجتماعهما في حال واحدة الدنيا والآخرة كضرتين ان ارضيت احداهما اسخطت الاخرى (فان قلت) يظهر مما حكيته من هذه المشاهدة ان الذوات المفارقة ان كانت لجسم دائم الوجود لا يفسد كالافلاك كانت هي دائمة الوجود وان كانت لجسم يؤول الى الفساد كالحيوان الناطق فسدت هي واضمحلت وتلاشت حسبما مثلت به في مرايا الانعكاس فان الصورة لا ثبات لها الا بثبات المرآة فاذا فسدت المرآة صح فساد الصورة واضمحلت هي (اقول لك) ما اسرع ما نسيت العهد وحلت عن الربط الم تقدم اليك ان مجال العبارة هنا ضيق وان الالفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة وذلك الذي توهمته انما اوقعك فيه ان جعلت المثال والممثل به على حكم واحد من جميع الوجوه ولا ينبغي ان يفعل ذلك في اصناف المخاطبات المعتادة فكيف ههنا والشمس ونورها وصورتها وتشكلها والمرايا والصور الحاصلة فيها كلها امور غير مفارقة للاجسام ولا قوام لها الا بها وفيها فلذلك افتقرت في وجودها اليها وبطلت ببطلانها واما الذوات الالهية والارواح الربانية فانها كلها بريئة عن الاجسام ولواحقها ومنزهة غاية التنزيه عنها ولا ارتباط ولا تعلق لها بها وسواء بالاضافة اليها بطلان الاجسام او ثبوتها ووجودها وعدمها وانما ارتباطها وتعلقها بذات الواحد الحق الموجود الواجب الوجود الذي هو اولها ومبدؤها وسببها وموجدها وهو يعطيها الدوام ويمدها بالبقاء والتسرمد ولا حاجة بها الى الاجسام بل الاجسام محتاجة اليها ولو جاز عدمها لعدمت الاجسام فانها هي مباديها كما انه لو جاز ان تعدم ذات الواحد الحق تعالى وتقدس عن ذلك لا اله الا هو لعدمت هذه الذوات كلها ولعدمت الاجسام ولعدم العالم الحسي بأسره ولم يبق موجود اذ الكل مرتبط بعضه ببعض والعالم المحسوس وان كان تابعا

للعالم الالهى شبيه الظل له والعالم الالهى مستغن عنه وبرىء منه فانه مع ذلك قد يستحيل فرض عدمه اذ هو تابع للعالم الالهى وانما فساده ان يبدل لا ان يعدم بالجملة وبذلك نطق الكتاب العزيز حيثما وقع هذا المعنى فى تسيير الجبال كالعهن والناس كالفراش وتكوير الشمس والقمر وتفجير البحار يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فهذا القدر الذى أمكننى الآن أن اشير اليك به فيما شاهده حى بن يقظان فى ذلك المقام الكريم فلا تلتمس الزيادة عليه من جهة الالفاظ فان ذلك كالمتعذر

وأما تمام خبره فسأتلوه عليك ان شاء الله تعالى وهو انه لما عاد الى العالم المحسوس وذلك بعد جولانه حيث جال سئم تكاليف الحياة واشتد شوقه الى الحياة القصوى فجعل يطلب العود الى ذلك المقام بالنحو الذى طلبه اولا حتى وصل اليه بايسر من السعى الذى وصل به اولا ودام فيه ثانيا مدة اطول من الاولى ثم عاد الى عالم الحس ثم تكلف الوصول الى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الاولى والثانية وكان دوامه فيه أطول ومازال الوصول الى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهولة والدوام فيه يزيد طولا مدة بعد مدة حتى صار بحيث يصل اليه متى شاء ولا ينفصل عنه الا متى شاء فكان يلازم مقامه ذلك ولا ينثنى عنه الا لضرورة بدنه التى كان قد قللها حتى كان لا يوجد اقل منها وهو فى ذلك كله يتمنى ان يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذى يدعوه الى مفارقة مقامه ذلك فيتخلص الى لذته تخلصا دائما ويبرأ عما يجده من الالم عند الاعراض عن مقامه ذلك الى ضرورة البدن وبقى على حالته تلك حتى اناف على سبعة اسابيع من منشئه وذلك خمسون عاما وحينئذ اتفقت له صحبة اسال وكان من قصته معه ما يأتى ذكره بعد هذا ان شاء الله تعالى

ذكروا ان جزيرة قريبة من الجزيرة التى ولد بها حى بن يقظان على احد القولين المختلفين فى صفة مبدئه انتقلت اليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الانبياء المتقدمين صلوات الله عليهم وكانت ملة محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالامثال المضروبة التى تعطى خيالات تلك الاشياء وتثبت رسومها فى النفوس حسبما جرت به العادة فى مخاطبة الجمهور فمازالت تلك الملة تنتشر بتلك الجزيرة وتقوى وتظهر حتى قام بها ملكها وحمل الناس على التزامها وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من اهل الفضل والرغبة فى الخير يسمى احدهما اسالا والآخر سلامان فتلقيا تلك الملة وقبلاها احسن قبول واخذا انفسهما بالتزام جميع شرائعها والمواظبة على اعمالها واصطحبا على ذلك وكانا يتفقهان فى بعض الاوقات فيما ورد من الفاظ تلك الشريعة فى صفة الله عز وجل وملائكته وصفات المعاد والثواب والعقاب (فاما اسال فكان اشد غوصا على الباطن واكثر عثورا على المعانى الروحانية واطمع فى التاويل (واما سلامان صاحبه) فكان اكثر احتفاظا بالظاهر واشد بعدا عن التاويل واوقف عن التصرف والتامل وكلاهما مجد فى الاعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى وكان فى تلك الشريعة اقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على ان الفوز والنجاة فيهما واقوال اخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة فتعلق اسال بطلب العزلة ورجح القول بها لما كان فى طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعانى واكثر ما كان يتأتى له امله من ذلك بالانفراد وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ورجح القول بها لما كان فى طباعه من الجبن

عن الفكرة والتصرف فكانت ملازمتها الجماعة عنده مما يدره الوسواس ويزيل الظنون المعترضة ويعيذ من همزات الشياطين وكان اختلافهما في هذا الراي سبب افتراقهما وكان اسال قد سمع عن الجزيرة التي ذكر ان حي بن يقظان تكون بها وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل وان الانفراد بها يتأتى لملتمسه فاجمع على ان يرتحل اليها ويعتزل الناس بها بقية عمره فجمع ما كان له من المال واكترى ببعضه مركبا تحمله الى تلك الجزيرة وفرق باقيه على المساكين وودع صاحبه سلامان وركب متن البحر فحمله الملاحون الى تلك الجزيرة ووضعوه بساحلها وانفصلوا عنه وبقي اسال بتلك الجزيرة يعبد الله عز وجل ويعظمه ويقدسه ويفكر في اسمائه الحسنى وصفاته العليا فلا ينقطع خاطره ولا تتكدر فكرته واذا احتاج الى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد به جوعته واقام على تلك الحال مدة وهو في اتم غبطة واعظم انس بمناجاة ربه وكان كل يوم يشاهد من الطافه ومزايا تحفه وتيسيره عليه في مطالبه وغذائه ما يثبت يقينه ويقر عينه وكان في تلك المدة حي بن يقظان شديد الاستغراق في مقاماته الكريمة فكان لا يبرح عن مغارته الا مرة في الاسبوع لتناول ما سنح من الغذاء فلذلك لم يعثر عليه اسال باول وهلة بل كان يتطوف باكناف تلك الجزيرة ويسيح في ارجائها فلا يرى انسيا ولا يشاهد اثرا فيزيد بذلك انسه وتنبسط نفسه لما كان قد عزم عليه من التناهي في طلب العزلة والانفراد الى ان اتفق في بعض تلك الاوقات ان خرج حي بن يقظان لالتماس غذائه واسال قد ألم بتلك الجهة فوقع بصر كل واحد منهما على الآخر * فاما اسال فلم يشك انه من العباد المنقطعين وصل الى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس كما وصل هو اليها فخشي ان هو تعرض له وتعرف به ان يكون ذلك سببا لفساد حاله وعائقا بينه وبين امله * واما حي بن يقظان فلم يدر ما هو لانه لم يره على صورة شيء من الحيوانات التي كان قد عاينها قبل ذلك وكان عليه مدرعة سوداء من شعر وصوف فظن انه لباس طبيعي فوقف يتعجب منه مليا وولى اسال هاربا منه خيفة ان يشغله عن حاله فاقتفى حي بن يقظان أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الاشياء فلما رآه يشتد في الهرب خنس عنه وتوارى له حتى ظن اسال انه قد انصرف عنه وتباعد من تلك الجهة فشرع اسال في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع والتواجد حتى شغله ذلك عن كل شيء فجعل حي بن يقظان يتقرب منه قليلا قليلا واسال لا يشعر به حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه ويشاهد خضوعه وبكاءه فسمع صوتا حسنا وحروفا منظمة لم يعهد مثلها من شيء من اصناف الحيوان ونظر الى اشكاله وتخطيطه فرآه على صورته وتبين له ان المدرعة التي عليه ليست جلدا طبيعيا وانما هي لباس متخذ مثل لباسه هو ولما راى حسن خشوعه وتضرعه وبكائه لم يشك في انه من الذوات العارفة بالحق فتشوق اليه واراد ان يرى ما عنده وما الذي اوجب بكاءه وتضرعه فزاد في الدنو منه حتى احس به اسال واشتد في العدو واشتد حي بن يقظان في اثره حتى التحق به لما كان اعطاه الله من القوة والبسطة في العلم والجسم والتزمه وقبض عليه ولم يمكنه من البراح فلما نظر اليه اسال وهو مكتس بجلود الحيوانات ذوات الاوبار وشعره قد طال حتى جلل كثيرا منه وراى ما عنده من سرعة الحضر وقوة البطش فرق منه فرقا شديدا وجعل يستعطفه ويرغب

اليه بكلام لا يفهمه حي بن يقظان ولا يدرى ما هو غير انه يميز فيه تماثل الجزع فكان يؤنسه باصوات كان قد تعلمها من بعض الحيوانات و يجر يده على رأسه و يمسح اعطافه ويتملق اليه و يظهر البشر والفرح به حتى سكن جاش اسال وعلم انه لا يريد به سوأ وكان اسال قديما لمحبته في علم التأويل قد تعلم اكثر الالسن ومهر فيها فجعل يكلم حي بن يقظان ويسائله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج افهامه فلا يستطيع وحي بن يقظان في ذلك كله يتعجب مما يسمع ولا يدرى ما هو غير انه يظهر له البشر والقبول فاستغرب كل واحد منهما امر صاحبه وكان عند اسال بقية من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة فقربه الى حي بن يقظان فلم يدر ما هو لانه لم يكن شاهده قبل ذلك فاكل منه اسال واشار اليه ليأكل فتفكر حي بن يقظان فيما كان عقد على نفسه من الشروط في تناول الغذاء ولم يدر اصل ذلك الشيء الذي قدم له ما هو وهل يجوز له تناوله ام لا فامتنع عن الاكل ولم يزل اسال يرغب اليه و يستعطفه وقد كان اولع به حي بن يقظان فخشى ان دام على امتناعه ان يوحشه فاقدم على ذلك الزاد واكل منه فلما ذاقه واستطابه بدا له سوء ما صنع من نقض عهوده في شرط الغذاء وندم على فعله واراد الانفصال عن اسال والاقبال على شأنه من طلب الرجوع الى مقامه الكريم فلم تتأت له المشاهدة بسرعة فرأى ان يقيم مع اسال في عالم الحس حتى يقف على حقيقة شأنه ولا يبقى في نفسه نزوع اليه و ينصرف بعد ذلك الى مقامه دون ان يشغله شاغل فالتزم صحبة اسال ولما رأى اسال ايضا انه لا يتكلم امن من غوائله على دينه ورجا ان يعلمه الكلام والعلم والدين فيكون له بذلك اعظم اجر وزلفى عند الله فشرع اسال في تعليمه الكلام اولا بان كان يشير له الى اعيان الموجودات وينطق باسمائها و يكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها مقترنا بالاشارة حتى علمه الاسماء كلها ودرجه قليلا قليلا حتى تكلم في اقرب مدة فجعل اسال يسأله عن شأنه ومن اين صار الى تلك الجزيرة فاعلمه حي بن يقظان انه لا يدرى لنفسه ابتداء ولا ابا ولا اما اكثر من الظبية التي ربته ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى الى درجة الوصول فلما سمع اسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عز وجل ووصف له ذات الحق تعالى وجل باوصافه الحسنى ووصف له ما امكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك اسال في ان جميع الاشياء التي وردت في شريعته من امر الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره هي امثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان فانفتح بصر قلبه وانقدحت نار خاطره وتطابق عنده المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التأويل ولم يبق عليه مشكل في الشرع الا تبين له ولا مغلق الا انفتح ولا غامض الا اتضح وصار من اولى الالباب وعند ذلك نظر الى حي بن يقظان بعين التعظيم والتوقير وتحقق عنده انه من اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فالتزم خدمته والاقتداء به والاخذ باشاراته فيما تعارض عنده من الاعمال الشرعية التي كان قد تعلمها في ملته وجعل حي بن يقظان يستفصحه عن امره وشأنه فجعل اسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من العالم وكيف كانت سيرهم قبل وصول الملة اليهم وكيف هي الان بعد وصولها اليهم ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم الالهي والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط ففهم حي بن

يقظان

يقظان ذلك كله ولم ير فيه شيأ على خلاف ما شاهده فى مقامه الكريم فعلم ان الذى وصف ذلك
وجاء به محق فى وصفه صادق فى قوله رسول من عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته ثم جعل
يسأله عما جاء به من الفرائض ووظفه من العبادات فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما
اشبهها من الاعمال الظاهرة فتلقى ذلك والتزمه وأخذ نفسه بادائه امتثالا للامر الذى صح
عنده صدق قائله الا انه بقى فى نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدرى وجه الحكمة فيهما
(احدهما) لم ضرب هذا الرسول الامثال للناس فى أكثر ما وصفه من امر العالم الالهى واضرب
عن المكاشفة حتى وقع الناس فى أمر عظيم من التجسيم واعتقاد أشياء من ذات الحق هو منزه
عنها وبرىء منها وكذلك فى أمر الثواب والعقاب (والامر الآخر) انه لم اقتصر على هذه
الفرائض ووظائف العبادات واباح الاقتناء للاموال والتوسع فى المآكل حتى تفرغ
الناس للباطل بالباطل والاعراض عن الحق وكان رأيه هو ان لا يتناول احد شيأ الا ما
يقيم به الرمق واما الاموال فلم تكن عنده بمعنى وكان يرى ما فى الشرع من الاحكام فى امر
الاموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يستغرب ذلك كله ويراه
تطويلا ويقول ان الناس لو فهموا الامر على حقيقته لاعرضوا عن هذه البواطل وأقبلوا
على الحق واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لاحد اختصاص بمال يسئل عن زكاته أو تقطع
الايدى على سرقته أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة وكان الذى أوقعه فى ذلك ظنه ان
الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ولم يكن يدرى ما هم عليه من البلادة
والنقص وسوء الرأى وضعف العزم وانهم كالانعام بل هم أضل سبيلا فلما اشتد اشفاقه على
الناس وطمع أن يكون نجاتهم على يديه حدثت له نية فى الوصول اليهم وايضاح الحق لديهم
وتبيينه ففاوض فى ذلك صاحبه اسال وساله هل تمكنه حيلة فى الوصول اليهم فاعلمه اسال
بما هم عليه من نقص الفطرة والاعراض عن أمر الله فلم يتأت له فهم ذلك وبقى فى نفسه تعلق
بما كان قد امله وطمع اسال أن يهدى الله على يديه طائفة من معارفه المريدين الذين كانوا
أقرب الى التخلص من سواهم فساعده على رأيه ورأيا أن يلتزما ساحل البحر ولا يفارقاه ليلا
ولا نهارا لعل الله أن يسنى لهما عبور البحر فالتزما ذلك وابتهلا الى الله تعالى بالدعاء أن يهىء
لهما من امرهما رشدا فكان من أمر الله عز وجل ان سفينة فى البحر ضلت مسلكها ودفعتها
الرياح وتلاطم الامواج الى ساحلها فلما قربت من البر رأى أهلها الرجلين على الشاطىء فدنوا
منهما فكلمهم اسال وسالهم ان يحملوهما معهم فاجابوهما الى ذلك وأدخلوهما السفينة فارسل الله
اليهم ريحا رخاء حملت السفينة فى أقرب مدة الى الجزيرة التى قصداها فنزلا بها ودخلا مدينتها
واجتمع أصحاب اسال به فعرفهم شأن حى بن يقظان فاطافوا به اطافة شديدا وأكبروا
امره واجتمعوا اليه وأعظموه وبجلوه وأعلمه اسال ان تلك الطائفة هم أقرب الى الفهم
والذكاء من جميع الناس وانه ان عجز عن تعليمهم فهو عن تعليم الجمهور أعجز وكان رأس تلك
الجزيرة وكبيرها سلامان وهو صاحب اسال الذى كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم
العزلة فشرع حى بن يقظان فى تعليمهم وبث أسرار الحكمة اليهم فما هو الا أن ترقى عن
الظاهر قليلا واخذ فى وصف ما سبق الى فهمهم خلافه فجعلوا ينقبضون عنه وتشمئز نفوسهم
عما يأتى به ويتسخطونه فى قلوبهم وان اظهروا له الرضا فى وجهه اكراما لغربته فيهم ومراعاة

سنّاه بالتشديد تسنية سهّله وفتحه اه

تحقق صاحبهم اسال وما زال حي بن يقظان يستلطفهم ليلا ونهارا ويبين لهم الحق سرا وجهارا
فلا يزيدهم ذلك الا نفارا ونفورا كانوا محبين في الخير راغبين في الحق الا انهم لنقص فطرتهم
كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه بجهة تحقيقه ولا يلتمسونه من بابه بل كانوا
لا يريدون معرفته من طريق اربابه فيئس من اصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة
قبولهم وتصفح طبقات الناس بعد ذلك فرأى كل حزب بما لديهم فرحون قد اتخذوا الههم
هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا في جمع حطام الدنيا والهاهم التكاثر حتى زاروا
المقابر لا تنجع فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يزدادون بالجدل الا اصرارا
واما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ولا حظ لهم منها قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم فلما رأى
سرادق العذاب قد احاط بهم وظلمات الحجب قد تغشتهم والكل منهم الا اليسير لا يتمسكون
من ملتهم الا بالدنيا وقد نبذوا اعمالها على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا
قليلا والهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ولم يخافوا يوما تتقلب فيه القلوب والابصار
بان له وتحقق على القطع ان مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا يمكن وان تكليفهم من العمل فوق
هذا القدر لا يتفق وان حظ اكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو في حياتهم الدنيا
ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به وانه لا يفوز منهم بالسعادة الاخروية
الا الشاذ النادر وهو من اراد حرث الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن واما من طغى وآثر
الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وأي تعب اعظم وشقاوة اطم ممن اذا تصفحت اعماله من
وقت انتباهه من نومه الى حين رجوعه الى الكرى لا تجد منها شيئا الا وهو يلتمس به تحصيل
غاية من هذه الامور المحسوسة الخسيسة اما مال يجمعه او لذة ينالها او شهوة يقضيها او غيظ
يتشفى به او جاه يحرزه او عمل من اعمال الشرع يتزين به او يدافع عن رقبته وهي كلها ظلمات
بعضها فوق بعض في بحر لجي وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا فلما فهم احوال
الناس وان اكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق علم ان الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما
نطقت به الرسل ووردت به الشريعة لا يمكن غير ذلك ولا يحتمل المزيد عليه فلكل عمل رجال
وكل ميسر لما خلق له سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا فانصرف الى
سلامان وأصحابه فاعتذر لهم عما تكلم به معهم وتبرأ اليهم منه وأعلمهم انه قد رأى مثل رأيهم
واهتدى بمثل هديهم وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والاعمال الظاهرة
وقلة الخوض فيما لا يعنيهم والايمان بالمتشابهات والتسليم لها والاعراض عن البدع والاهواء
والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الامور وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من
اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا وحذرهم عنه غاية التحذير وعلم هو وصاحبه اسال ان
هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها الا بهذا الطريق وانها ان رفعت عنه الى يفاع
الاستبصار اختل ما هي عليه ولم يمكنها ان تلحق بدرجة السعداء وتذبذبت وانتكست وساءت
عاقبتها وان هي دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالامن وكانت من أصحاب
اليمين واما السابقون السابقون فاولئك المقربون فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا في العود الى
جزيرتهما حتى يسر الله عز وجل عليهما العبور اليها وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو

الذى

الذى طلبه أولا حتى عاد اليه واقتدى به آخرا من قرب منه او كان منه بسبيل الى ان
حتى اتاه اليقين هذا ايدنا الله واياك بروح منه ما كان من نبأ حى بن يقظان واسال وسلامان
وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد فى كتاب ولا يسمع فى معتاد خطاب وهو من العلم
المكنون الذى لا يقبله الا اهل المعرفة بالله ولا يجهله الا اهل الغرة بالله وقد خالفنا فيه طريق
السلف الصالح فى الضنانة به والشح عليه الا ان الذى سهل علينا افشاء هذا السر وهتك
الحجاب ما ظهر فى زماننا هذا من آراء مفسدة نبغت بها متفلسفة العصر وصرحت بها حتى
انتشرت فى البلدان وعم ضررها وخشينا على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الانبياء صلوات
الله عليهم وارادوا تقليد السفهاء ان يظنوا ان تلك الآراء هى المضنون بها على غير اهلها فيزيد
بذلك حبهم فيها وولوعهم بها فرأينا ان نلمع اليهم بطرف من سر الاسرار لنجتذبهم الى جانب
التحقيق ثم نصدهم عن ذلك الطريق ولم نخل مع ذلك ما اودعناه هذه الاوراق اليسيرة من
الاسرار عن حجاب لطيف ينهتك سريعا لمن هو من اهله ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى
لا يتعداه وانا اسأل اخوانى الواقفين على هذا الكلام ان يقبلوا عذرى فيما تساهلت فى
تبيينه وتسامحت فى تثبيته فلم افعل ذلك الا لأنى تسنمت شواهق يزل الطرف عن مرآها
واردت تقريب الكلام فيها على وجه الترغيب والتشويق فى دخول الطريق واسأل الله
التجاوز والعفو وان يوردنا من المعرفة به الصفو انه منعم كريم والسلام عليك ايها الأخ
المفترض اسعافه ورحمة الله وبركاته

تم بعون الله طبع رسالة حى بن يقظان الحكميه عزيزة المثال سهلة المنال البهية
المحتوية على انفس الغرائب بنات الافكار الرائقة الثواقب بمطبعة وادى
النيل العامرة البهيه بمصر المحروسة بالعناية الالهية فى اوائل
شهر شعبان سنة ١٢٩٩ من هجرة سيد ولد عدنان
صلى الله عليه وعلى اله واصحابه ومن
كان على هديه ومنواله ما هدر
الحمام وفاح شذ
التمام

*(ذكر ابن خلكان فى ترجمة ابى على بن سينا ان هذه الرسالة من مؤلفاته فلعلها كانت
بالفارسية وترجمها ناقلها هذا رحم الله الجميع)*